الفصل الثالث

الاستعمار وجنوب أفريقيا

لعن كنعان ومباركة سام

واشتغل نوح بالفلاحة وغرس كرمًا، وشرب من الخمر فسكر وتعرَّى داخل خيمته، فشاهد حام أبو الكنعانيين عُرْى أبيه، فخرج وأخبر أخويه اللذين كانا خارجًا. فأخذ سام ويافث رداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا القهقرى إلى داخل الخيمة، وسترا عرى أبيهما من غير أن يستديرا بوجهيهما نحوه فيبصرا عُرْيه.

وعندما أفاق نوح من سكره وعلم ما فعله به ابنه الصغير قال: «ليكن كنعان ملعونًا، وليكن عبد العبيد لإخوته». ثم قال: «تبارك الله إله سام. وليكن كنعان عبدًا له. ليوسع الله ليافث فيسكن فى خِيام سام. وليكن كنعان عبدًا له».

[التكوين ٩: ٢٠ - ٢٧]

obeikan.com

obeikan.com

سنرى أن الكتاب المقدس و علم اللاهوت المسيحى قد أثرا بشكل واضح على تطور الاستعمار الأفريقانى[1] والقومية الأفريقانية، وقدما تبريرات من الماضى لذلك. فقد دافع أغلبية رجال اللاهوت الإصلاحيين من الهولنديين فى جنوب أفريقيا مابين ١٩٣٠ -١٩٦٠، وهى فترة تطبيق سياسة الأپارتهايد (التمييز العنصرى) ـ بشدة عن هذه النظرية، حيث استندوا بشكل خاص على سفر التثنية (دايست ١٩٩٤). وبالطبع لم يكن تفسير الكتاب المقدس العامل الوحيد، بل ولم يكن العامل الأهم الذى استُعمل لتبرير الأپارتهايد؛ فقد تأثر التحول الاجتماعى بمجموعة من العوامل الاجتماعية والسياسية والدينية. وبعرض التطورات الأساسية للتاريخ الأفريقانى، سنرى كيف تم تركيب بعض مظاهر السيناريو التاريخى فى وقت من الأوقات كعوامل تشكيل أسطورة الأصول التى تم حبكها؛ التى تؤسس تبرير بعض الأعمال باللجوء إلى تفسير كتابى ولاهوتى يتماشى بشكل أفضل مع الأيديولوچية السياسية الأفريقانية. وفى نهاية هذا الفصل، سأناقش صلاحية استعمال أسطورة الأصول وفقًا لوجهة نظر مكتسبات البحث التاريخى والعلمى، كما سأدرس التأكيدات اللاهوتية وأعيد النظر فيها، على ضوء الاعتبارات الأخلاقية.

تاريخ البوير[2]

تتداخل التحديات اللاهوتية و الكتابية دائمًا فى سيناريو معقد مع العناصر السياسية والاجتماعية، و بالتالى من الأوضح دراسة الصورة الكاملة منذ البداية. ونلاحظ أن العوامل اللاهوتية والكتابية لم تكتسب أهمية إلا فى العصر الحديث مع صناعة القومية

(١) الأفريقان هم المستوطنون الهولنديون ومعهم بعض الألمان والفرنسيين فى جنوب أفريقيا ـ المترجمة.

(٢) البوير هم من أصول هولندية أو ألمانية أو فرنسية عاشوا فى جنوب أفريقيا، وأغلبهم من أصل هولندى. وكلمة بور فى أصلها الهولندى معناها فلاح. إذن هم الأوروپيون المستوطنون الذين يسمون أيضًا الأفريقان، وهو مصطلح مختلف بالطبع عن الأفارقة ـ المترجمة.

الأفريقانية. وليس من الصعب تقديم الحجج لنوضح موقف الكتاب المقدس والأفكار اللاهوتية فى الخطاب العام. ولكن على الرغم من محاولة بعض علماء اللاهوت إعطاء الانطباع بأن العنصر الدينى كان محور كل مرحلة، لا نجد أى دليل قاطع ومقنع لهذه النظريات فى عدد كبير من مراجع الأپارتهايد (انظر مثلاً فى المراجع القليلة عن العوامل اللاهوتية لدى كالى ١٩٨٧). فالمنهج النظرى الذى يوضح أفكاراً كتابية ولاهوتية دون أن يرجع للسياق الاجتماعى الموسع، يعد بلا شك منهجًا سطحيّا. وسأعرض الآن ملخص الأحداث الهامة للقومية الأفريقانية مبتعداً بذلك عن العناصر المصطنعة على أساس الأسطورة الأفريقانية[1].

فى عام ١٦٥٢، قام مسئولو شركة الهند الشرقية الهولندية، وهى مؤسسة تجارية لاستعمار جنوب أفريقيا، بإنشاء مستعمرة صغيرة فى رأس الرجاء الصالح؛ وكان الغرض من إنشاء هذه المستوطنة فى تلك المنطقة فى ذلك الوقت، هو تأسيس قاعدة لتقديم الخدمات للسفن التابعة للشركة والمتوجهة إلى الشرق الأقصى. وفى سنة ١٦٨٨م، التحق ٢٠٠ من الهوجونو (البروتستانت) الذين فرّوا من الاضطهاد الدينى فى فرنسا بهؤلاء المستوطنين الأوائل. وفى بادئ الأمر، كانت علاقتهم حميمة مع السكان الأصليين «الخوى خوى ـ khoi khoi»، والذين أطلق عليهم النزلاء الجدد اسم «هوتينتوتس» و«سان»، ولكنها سرعان ما توترت بعدما بدأ المهاجرون فى التسيد. وبعد بعض المعارك عام ١٦٥٩و ١٦٦٠، انتصر البيض بسهولة على «الخوى خوى» الذين كانوا رعاة ماشية، إلا أن بعض قبائل «سان» واصلت دفاعها عن نفسها الذى استمر حتى القرن التاسع عشر. وفى عام ١٧٩٥ قامت فرقة بريطانية حربية باحتلال الكاپ، ثم تم إعادته للهولنديين عام ١٨٠٣، لكن استعادته القوات البريطانية مرة أخرى عام ١٨٠٦.

وفى عام ١٨٠٠نزع البيض جميع الأراضى من «الخوى خوى» الذين أصبحوا معتمدين بشكل شبه كامل عليهم. وأنشأ البيض مجالاً لهم فى القرن التاسع عشر، لا يُسمح للسود بدخوله إلا بإذن الرجل الأبيض. وبرغم أن الهولنديين كانوا يتكلمون

(١) كل العرفان لزميلى الدكتور«ألان ليستر» الذى سمح لى بالخوض بشكل موسع فى دراسته الرئيسية(١٩٩٦).

نفس اللغة، ويدينون بنفس الديانة، ولهم نفس المصالح، مع الوعى الذاتى بمسألة اللون، إلا أنهم لم يكن لديهم وعى قومى؛ حيث كانوا يشكلون مجموعة مستوطنين يعيشون فى بيئة مستعمرة معادية نسبيّا، أكثر من أمة فى طريق التكوين (ليستر ١٩٩٦: الفصل الأول). ومنذ القرن التاسع عشر، امتلك البيض الأراضى على حساب السكان الأصليين الذين تم انتزاع أراضيهم وترحيلهم عنها.

وقد وضع اللورد «سومرسيت» محافظ الكاپ من ١٨١٤إلى ١٨٢٦، سياسة جعل كل شىء إنجليزيّا. وكان الأوروپيون يتبنون نفس المواقف المتعصبة والمتشددة التى كان يتبناها الأوروپيون المستعمرون فى العالم الجديد[الأمريكات]. وألغت بريطانيا تجارة الرقيق بحلول عام ١٨٣٤م، ويقول المؤرخون المتأخرون إن السبب الرئيسى لحرب البوير كان عدم تعويض بريطانيا لأصحاب العبيد، وليس إبطال الرق نفسه.

وهاجر حوالى ١٥٠٠٠ من البوير من المستوطنة عام ١٨٣٦ باتجاه الشمال والشرق حتى يبدءوا مشروعهم بعيداً عن سيطرة الإنجليز[١]. وتحدث علماء التاريخ فيما بعد وأكدوا أن سبب النزوح الكبير كان سوء معاملة البريطانيين للأفريقان: «لم تقم السياسة الجديدة على حب الزنوج، و إنما حقد الإنجليز واحتقارهم للبوير» (ريتز: ١٩٠٠: ٩٢ فى موودى ١٩٧٥: ٣). وبعد عدة نزاعات، انتهى الأمر بالبوير بالاستقرار سلميّا فى ناتال؛ حيث أسسوا جمهورية. وعندما ضم الإنجليز ناتال، هاجر عدد من البوير من الجمهورية واستقروا فى الجمهوريات المشكلة من قبل فى ولاية الأورانج الحرة وجمهورية الترانسڤال.

نشأة القومية الأفريقانية

وفى سبعينيات القرن التاسع عشر، كانت شبه القارة مقسمة إلى عدد كبير من الكيانات السياسية البارزة؛ وعندما ضم الإنجليز جمهورية الترانسڤال عام ١٨٧٧، قام

(١) لعبت المصطلحات دوراً فعالاً فى تقييم حركة الهجرة هذه. فقبل سبعينيات القرن التاسع عشر، ترك البوير مستوطنة الكاپ فى الثلاثينيات والأربعينيات وكان يطلق عليهم اسم المهاجرين أو اللاجئين أو النازحين. وعندما كانوا يستقرون فى مكان محدد، كان يطلق عليهم اسم الرواد. وفى نهاية الستينيات، بدأ يطلق اسم الرواد على البوير الذين رحلوا من الكاپ ما بين ١٨٣٦و١٨٥٤، وأخيراً تبنى هذه التسمية جميع الأفريقان فى نهاية القرن. وفي هذه الفترة أصبحت الهجرة عنصراً أساسيّا فى تاريخ جنوب أفريقيا، ومنذ ذلك الحين أصبحت حركتهم قصة شعبية بطولية فى تاريخ جنوب أفريقيا، وأطلق عليها الأفريقان وبعض المتكلمين بالإنجليزية فى جنوب أفريقيا «النزوح الكبير» (إل. تومپسون ١٩٨٥: ١٧٣).

البوير بثورة. وكانت هذه الثورة بداية أولى الحربين بين الإنجليز و البوير (١٨٨١-١٨٨٢). وقد تجمع الناس فى «پارديكرال» يوم ١٦ديسمبر ١٨٨٠ ليجددوا عهدهم مع السيد المسيح (دى پليسيس فى موودى ١٩٧٥ : ٧ - ٨). كان الاهتمام المتزايد الذى توليه إنجلترا لهذه المناطق يرجع بدرجة كبيرة إلى اكتشاف مناجم هامة من الماس والذهب (١٨٨٦- ١٨٨٧)؛ حيث كانت تشكل مصالح كبيرة للبيض لاسيما للإنجليز (إل. تومپسون ١٩٩٥ : ٢١).

ومنذ ١٨٧٠وحتى نهاية القرن، أكملت الفرق البريطانية و المليشيات الاستعمارية وفرق البوير المسلحة، من خلال العمل المشترك، غزو الأفارقة السود. وكما أن لدى الإنجليز ـ مثلهم مثل البوير ـ إحساسًا بالأعلوية على السود، مبنيّا على انتمائهم إلى جنس متحضر وإلى ديانة شريفة، فإن مثل هذا التبرير كاف ـ وفقًا لهم ـ لامتلاك الأراضى واستغلال اليد العاملة وإخضاع السود. وقد عرفت مجموعتا البيض، الإنجليز والبوير، كيف توقفان معاركهما وخلافاتهما لتطويع الأفارقة السود.

إلا أن الجمهوريين البوير رفضوا مشروع إنجلترا للسيطرة على جنوب أفريقيا وإنشاء اتحاد خاضع للتاج البريطانى، مما أسفر عن اشتعال الحرب الثانية بين البوير والإنجليز، من ١٨٩٩ إلى ١٩٢٠. وبحلول عام ١٩٠٠، أصبحت ولاية الأورانج الحرة والترانسڤال أراضى بريطانية. وأمام موت الآلاف منهم، من بينهم ٢٦٧٣٠ امرأة وطفل فى معسكرات الاعتقال البريطانية، مع انعدام الأمل فى وضعهم، استسلم البوير. وتنص معاهدة «ڤيرنيجينج» عام ١٩٢٠ على استسلام البوير وإدماجهم فى الإمبراطورية البريطانية. ورغم الهزيمة، نجح الشعور المتصاعد لتحقيق وحدة البوير ضد عدو قوى مثل إنجلترا فى تعزيز القومية الأفريقانية.

وأدى العمل فى المناجم إلى تغير ظروف عمل اليد العاملة السوداء؛ وفى عام ١٨٩٩، بلغ عدد العاملين السود فى مناجم الذهب ١٠٠٠٠٠ عامل. وكان السود يعيشون فى أحياء متفرقة. وتدريجيّا رفض البيض الذين يقطنون بالمدن وجود السود الذين كانوا يشكلون تهديدًا على مكتسبات الحضارة البيضاء وتهديدًا لنظام التمييز العنصرى القائم. وفى عام ١٩١٠، صدر قانون الاتحاد الذى نص على تكوين اتحاد جنوب أفريقيا، ومقاطعاته هى الكاپ و ناتال و الترانسڤال وولاية الأورانج الحرة ـ

وهو اتحاد يسيطر عليه البيض، ويحكمه البريطانيون ـ وتم تطبيق التمييز العنصرى رسميّا بدعم من الإدارة البريطانية والزعماء الأفريقان. وبموجب قانون الأرض عام ١٩١٣، تم منع السود من البقاء على الأراضى التى يمتلكها البيض إلا إذا كانوا مقيمين كعمال مأجورين.

وفى عام ١٩١٤، أنشأ الچنرال «هيرتزوج» أول حزب وطنى أفريقى والذى أسس لنموذج اتحاد جنوب أفريقيا ذى التيارين [الأبيض والأسود]. وتم تشكيل رابطة الإخوة الأفريكانر فى ١٩١٨كطلائع للقتال فى سبيل جعل جنوب أفريقيا أفريقانية؛ ووفقًا لدراسة «بلومبرج» (١٩٩٠)، كان أعضاء الجماعة من البروتستانت الذين تعاهدوا على فكرة أبدية أمة أفريقانية منفصلة، والتى دعا إليها الله، لتنشأ ثابتة على التراث التاريخى للمسيحية، ، والقانون المقدس لله (مودى ١٩٧٥ : ١٠٣ - ١٠٤).

وفى عام ١٩٣٤، شكل «دانيال ف. مالان» الحزب الوطنى «المطهر» والذى يرى أن مصير جنوب أفريقيا هو أن تصبح جمهورية مستقلة عن التاج الملكى. وكان يدعو إلى القومية المسيحية على عكس التطور العام فى أوروبا: «أنزل عصر التنوير الله عن عرشه، أما إيمان الأفريقان فقد تَوَّجَهُ ملكًا وراعيًا على جمهوريتنا» (بلومبرج ١٩٩٠ :٢٨). وكان هذا هو مبدأ الحزب الوطنى وأصله؛ فقد كان يدافع بكل صرامة عن مبادئ القومية المسيحية، ألا وهى تعليم مبنى على التفرقة وفقًا للغة الأم والتمييز الشديد بين البيض والسود وإقامة دولة جمهورية. وكان «مالان» ـ الذى كان قسّا سابقًا ـ أول رئيس وزراء (١٩٤٨ - ١٩٥٤).

وكانت أسس سياسة الأپارتهايد (الفصل العنصرى) قائمة بالفعل فى الفترة ما بين١٩١٠ - ١٩٤٨. وفى بداية القرن العشرين، كان تفوق البيض على السود مبنيّا على عنصرية علمية داروينية فجة. كما كان الفصل (العزل العنصرى) يعتبر عاملاً فعالاً ضد أى تعبئةمضادة محتملة من قبل العمال الأفارقة. وكان تحديد إقامتهم فى محميات وسيلة للسيطرة الاجتماعية. وتمت الموافقة على قانون «الأهالى ـ Natives» عام ١٩٢٣ ثم لحقته عدة قوانين أخرى، والتى كانت تسمح للسود بأن يعملوا فى المدن لكن بأعداد قليلة؛ حتى لا يتم إزعاج السادة البيض.

ووفقًا لمصادر مختلفة، فقد يرجع تطور القومية الأفريقانية فى الثلاثينيات، إلى الوضع المأساوى لعمال المدن البيض، الذين كانوا يعانون من التمييز بسبب سيطرة الرأسمالية الإنجليزية (وهذه وجهة نظر ماركسية)، وهناك من يُرجع تطور هذه القومية إلى تطور الهوية والثقافة الأفريقانية، والتى كانت تعكس اختلافًا فى اللغة والدين والتاريخ بين الإنجليز والأفريقان (وهذه وجهة نظر ليبرالية). كذلك لعبت عوامل كتابية ولاهوتية ـ بشكل خاص ـ دورًا فى هذه العملية. وفى الواقع، من الواضح أن أى تغيير ثقافى مهم فى أى مجتمع يرجع إلى تضافر عدة عوامل، أيديولوچية ومادية، وحتى إلى عامل المكان مثلما يصر «ليستر». وقد أسهم فى ذلك كل من التجارة والتصنيع والهجرة إلى المدن الكبرى (ليستر ١٩٩٦ : الفصل الثالث).

كان التشريع المتطرف بشأن الأپارتهايد الذى تم إقراره بقدوم الحزب الوطنى إلى الحكومة عام ١٩٤٨ يطبق سياسة عملية پراجماتية وملتوية لدعم أيديولوچية الحركة القومية الأفريقانية. وكان فكر الحزب يقوم على الحفاظ على مجتمع انفصالى يتناسب مع المبادئ السياسية والدينية للأفريقان، حيث تتملكهم الفكرة الملحة للنقاء العرقى وتحسين النسل، والحفاظ على الهيمنة السياسية و الامتيازات الاقتصادية للبيض فى مواجهة تهديد التحضر والتطور الاجتماعى للسود. وكان الحزب الوطنى يريد أيضًا أن يتمتع الأفريقان بالمساواة، بل وأيضًا بالهيمنة على من يتكلمون الإنجليزية (ليستر ١٩٩٦ : ١٠٧).

كما يستند التبرير الأيديولوچى للأپارتهايد أيضًا على الدراسات التى قام بها عالم الأجناس البشرية «دبليو. دبليو . إم. إيسلين» الذى أكد أن التفرقة بين الأجناس البشرية هى الحل الوحيد، لكن يجب تطبيقها بشكل صريح و صادق وبنَّاء. وبالأخذ فى الاعتبار أن الأفكار العنصرية الفجة للداروينية الاجتماعية لن تقبل فى الخمسينيات من القرن العشرين، لجأ «إيسلين» وتلاميذه إلى مصطلح تفوق ثقافة عالية على أخرى بدلاً من تفوق جنس على آخر ،ليطالب بتطور يفصل بين الأجناس البشرية. وكان دور الأپارتهايد هو ضمان حماية الهوية الثقافية لكل مجموعة، فكل كيان عرقى يتعين عليه أن يحافظ على مقوماته بما فى ذلك: لغته وديانته وتقاليده. وعرفت الكنيسة الإصلاحية الكبرى فى هولندا كيف تؤدى دورها جيدًا لتحويل مسألة الفصل العنصرى

إلى حملة أخلاقية صليبية، فأقرَّ المؤتمر السنوى للكنيسة عام ١٩٥٠ سياسة فصل تامة بين البيض والسود. هذا رغم أن الأپارتهايد الذى كان يعبر عن أيديولوچية عنصرية صارخة أصبح أكثر فأكثر لا يتناسب مع تطورات العصر. ونظرًا للمساندة الكبيرة للأفريقان لهذا الفصل العنصرى، لقى الأفريقان معارضة ونقدًا لاذعًا من الحركة الدولية ضد الاضطهاد العنصرى والمعارضة الأفريقية والتى كان من أبرز ممثليها المؤتمر الوطنى الأفريقى (ANC) الذى تم إنشاؤه عام ١٩١٢. وأدى تفاقم الأوضاع داخل هذا الحزب إلى انقسامه؛ وتأسس حزب أكثر تطرفًا هو حزب الوحدة الأفريقية (PAC).

أدى قانون تعليم البانتو عام ١٩٥٣ إلى إغلاق أغلب مدارس الكنائس، ووضع مكتب شئون السكان الأصليين مقررات دراسية تؤيد الأپارتهايد. ولكن كانت هناك فجوة كبيرة بين تاريخ الرجل الأبيض والحقيقة كما خبرها الآخرون؛ الأمر الذى أدى بالمدرسين الملونين إلى استعمال نصين أثناء تدريسهم فى خمسينيات القرن العشرين، فالأول نص يتناوله الامتحان، والثانى «الحقيقة» (إل. تومپسون ١٩٨٥ : ٦٧ ـ ٦٨). أما منهج التاريخ، فكان يركز على الوحى بالاختيار الإلهى لانفصال الأمم، مما يعكس القيمة الجوهرية للقومية المسيحية.

وتم تطبيق المرحلة الثانية من الأپارتهايد تحت إدارة رئيس الوزراء «ڤيرورد» من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٦ بعد أن اتحد بشكل قوى مع رابطة الإخوة. وشهدت الستينيات البدء فى برنامج طموح، عديم الرحمة، لهندسة التغيير الاجتماعى الذى حرم أغلبية الأفارقة من حق المواطنة فى جنوب أفريقيا، ثم أخرج ٣,٥ ملايين أسود بالقوة من المناطق المزعوم أنها للبيض، لنفيهم فى مخيمات عرقية تحت اسم أرض الوطن (پوزيل ١٩٩١ : ١). والأمر الذى يدعو للسخرية أنه فى الوقت الذى تم فيه إعطاء طابع مؤسسى للهيمنة العنصرية فى جنوب أفريقيا، كان العديد من دول القارة يشهد استقلاله وحريته، وكان يتم وصف انتشار هذه المجمعات العنصرية على أنها شكل من أشكال إزالة الاستعمار والاعتراف بالهوية والجنسية الأفريقية المستقلة (ليستر١٩٩٦ : ١٩ – ١٢٦). و كانت الأراضى التى يحاصر فيها السود [أراضى الوطن المزعومة] فقيرة للغاية، ودائمًا تخضع لسيطرة حكومة جنوب أفريقيا بدرجة لا تسمح بالاعتراف بها

من قبل أى حكومات معتبرة، باستثناء جنوب أفريقيا طبعًا (انظر ليستر ١٩٩٦ : ١٢٩). وكان الهدف الحقيقى للأفريقان هو جمع السود فى جيتوهات خارج المناطق الحضرية، والسماح لهم بدخول المناطق الحضرية وفقًا للضروريات التى يحددها البيض.

وأدت سياسة «ڤيرورد» إلى موقف معقد للغاية، انتهى بمذبحة راح ضحيتها ٦٩ أفريقيّا فى «شاربڤيل» وهم مناضلون فى الحملة ضد منعهم من المرور. وأسفرت هذه المذبحة وعمليات استبعاد المعارضين عن أزمة على المستوى الدولى، الأمر الذى أدى إلى انسحاب جنوب أفريقيا من الكومنولث، وإعلان قيام الجمهورية عام ١٩٦١. وبعد أن أدانت الأمم المتحدة الأپارتهايد عام ١٩٦٣، تم فرض حظر الأسلحة الذى أسهم فى انعزال اقتصاد جنوب أفريقيا.

عبَّر رجال دين لهم شأنهم فى الكنائس الأفريقانية عن اعتراضهم على العواقب الاجتماعية للفصل العنصرى، مثلما تجلى فى «كوتيسلو» فى ديسمبر ١٩٦٠. ومع هذا سعت رابطة الإخوة إلى تنصير الجمهورية وذلك بالتعريف بالجانب الإيجابى للتطور المبنى على الفصل العنصرى. وكان أعضاء الحكومة وعمداء المجتمعات ونصف مديرى المدارس والمفتشون، بالإضافة إلى ٤٠٪ من وزراء الكنيسة الإصلاحية الهولندية، كلهم أعضاء فى الرابطة؛ وكانوا كلهم يدافعون عن مبادئ القومية المسيحية.

ولكن فى أواخر السبعينيات، أصيب نظام الفصل العنصرى بضربات قاضية. وكان «پى. دبليو. بوتا» الذى أصبح رئيسًا للوزراء فى عام ١٩٧٨ يأمل فى النجاح فى إنقاذ النظام وذلك بتعديله. إلا أن المعارضة السوداء كانت تهدد بالقيام بثورة عامة وأخرجت الجيتوهات عن السيطرة. وقد مرت مساندة اللاهوت للأپارتهايد بتغيير كبير عند الإعلان يوم ١٣ سپتمبر ١٩٨٥ عن «وثيقة كايروس ـ Kairos document» بفضل مساهمة ٥٠ عالم لاهوت من سويتو وما حولها. ومثلما هو الأمر بالنسبة للفكر اللاهوتى بشأن تحرير أمريكا اللاتينية، فنقطة انطلاق هذا التفكير اللاهوتى كانت تجربة السود المساكين.

وبعد الأزمة القلبية التى أصابت «بوتا» فى ١٩٨٩، تسلم «دى كليرك» مقاليد حكم الوزارة على أساس برنامج إصلاحى سمح برجوع المؤتمر الوطنى الأفريقى (ANC)

وحزب الوحدة الأفريقية (PAC) والحزب الشيوعى لجنوب أفريقيا، بالإضافة إلى تحرير السجناء، و منهم «والتر سيسولو» و«نيلسون مانديلا» فى فبراير ١٩٩٠.

وفى فبراير ١٩٩١، تم إلغاء سلسلة من القوانين، مما وضع نهاية للطابع الرسمى للأپارتهايد. ثم تبع ذلك التفاوض مع أحزاب السود، و أخيراً الانتخابات التاريخية عام ١٩٩٤ التى غيرت واجهة جنوب أفريقيا السياسية. وأصبح «نيلسون مانديلا» رئيساً للجمهورية، و أصبح «كليرك» أحد نواب الرئيس، أما الزعيم «مانجوسوثو بوثلزى» فأصبح رئيساً للوزراء لمنطقة كوازولو / ناتال، ووزيراً للداخلية.

وجعل نظام الفصل العنصرى من جنوب أفريقيا الدولة التى عانت أكثر من غيرها فى العالم من عدم المساواة، حيث يعيش ثلثا السود تحت خط الفقر، و٩ ملايين من السكان فى حالة احتياج تامة. هذا كما يعيش ٦٠٪ من السكان فى حالة حرمان تام، و٥٥٪ منهم أميون و ٤٠٪ بدون عمل (ليستر ١٩٩٦ : ٢٤٠). ويخفف د. «مالان» ـ على عكس الحقيقة ـ من خسارة الشعب الأفريقى من جراء الحلم الأفريقانى قائلاً: «يثبت تاريخ الأفريقان الإرادة والصمود اللذين يعطيان شعوراً بأن مملكة الأفريقان ليست من عمل الإنسان و إنما من خلق الله» (تم ذكره فى مووديى ١٩٧٥ : ١) [أى بتذكر الأفارقة للكابوس الذى عاشوا فيه].

صناعة أسطورة القومية الأفريقانية المبكرة

بدأت الهوية والقومية الأفريقانية تطوراتها الأولى فى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وفى العادة تسترجع المجتمعات الوطنية أو الدول تاريخها، أو حتى تصنعه، لترتب أحوالها وطموحاتها. وعندما يكون هذا التاريخ الحقيقى غير معروف بشكل كاف، أو عندما يكون به حقائق لا تناسب بناء الهوية القومية، يتم وبكل سهولة خلق الوقائع والأحداث المتعلقة بالماضى وفقًا للأيديولوچية، كما يتم خلق أساطير متعلقة بالأصول. هذا ما فعله الأفريقان الذين نسبوا لأنفسهم ماضيًا، وفى محاولتهم لبناء تاريخهم، حفروا فى عدة عقود من الماضى جذور هويتهم وقوميتهم التى لم تكن ترجع فى الواقع إلا إلى نهاية القرن التاسع عشر.

و كان على الهوية القومية الأفريقانية الناشئة أن تفرض نفسها لمواجهة التهديد المزدوج للإمبريالية البريطانية وهيمنتها على الاقتصاد، ولمواجهة الوضع الذى لا تحسد عليه الأقلية فى وسط شعب أغلبه من الأفارقة السود. ولمواجهة هذا التهديد المزدوج، قام المفكرون الأفريقان ورجال السياسة و الكتاب و أعضاء الكنيسة بخلق أسطورة محفزة؛ حيث أكدوا أنه عند وصول الهولنديين إلى الكاپ عام ١٦٥٢، وجدوا فقط بعض قبائل السود الرحل ، والذين وصلوا إلى الكاپ منذ فترة قصيرة. وأعطى هذا الوضع للهولنديين حقّا أكبر فى الأراضى من هؤلاء السود. وأضافوا قائلين إن السود رفضوا هدية الحضارة المسيحية الغربية.

وابتدع قس الكنيسة الإصلاحية الهولندية «دى توا» (١٨٤٧ ـ ١٩١١) أساس الأسطورة العرقية لهذه المجموعة فى كتابه (تاريخ وطننا بلغة وطننا) وهو طبعًا كتاب يسرد قصة تاريخ الأفريقان، وكان أول كتاب يُنشر باللغة الأفريقانية (١٨٧٧). ووفقًا لـ«دى توا»، فإن الأفريقان كانوا يشكلون شعبًا مميزًا يحتل أرض الآباء المميزة، حيث تلقى أمرًا من الله بالبقاء لمدة محددة فى جنوب أفريقيا وحكمها ونشر الحضارة لدى السكان الوثنيين. وكان «دى توا» أول أفريقانى يتبنى مصطلح الشعب المختار للأفريقان. وبرغم انتصار أيديولوچية القومية الأفريقانية لـ «دى توا» فى الانتخابات العامة عام ١٩٤٨، فهى لم تَسُدْ فى المؤسسات السياسية فى القرن التاسع عشر، أمام معارضة الرئيسين «براند» و«كروجر» اللذين أرادا أن يحافظا على الهوية المنفصلة لولايتيهما (إل. تومپسون ١٩٩٥ : ١٣٥).

وتم الترويج ـ بشكل واسع ـ لمسألة الهوية الأفريقانية والرغبة فى الاستقلال، بفضل تعاليم المدارس الإصلاحية الهولندية والوعظ التقليدى للكالڤينية الأفريقانية، والنشاطات المتعددة لرابطة الإخوان (موودى ١٩٧٥ : ١١٠ – ١١١). ولاحظنا فى بداية القرن الجهود المنسقة بشكل جيد لإنشاء أدب أفريقانى يصنع أساطير الأصول الأفريقانية. و سرعان ما عبَّر المثقفون الأفريقان عن القومية الحماسية فى الكتب التى حرروها؛ وبهذا الشكل ساهم كل المجتمع فى صناعة تاريخه الخاص به (انظر إل. تومپسون ١٩٨٥ : ٣٥ – ٦٨). وتم ذلك على أساس بعض التركيبات الأيديولوچية مثل: أسطورة «سلاجترزنك ـ Slagtersnek» وأسطورة النزوح الكبير، و أسطورة

العهد. كانت كل هذه الأساطير تتماشى بسهولة مع تطور الأحداث، بالإضافة إلى أسطورة التفوق العنصرى.

أسطورة سلاجترزنك السياسية

أصبح حدث شنق متمردين أفريقان فى «ڤناردتسپوس» على بعد ٢٠ كيلومترًا من سلاجترزنك على الحدود الشرقية لمستعمرة الكاپ عام ١٨١٥ من الأساطير المؤسِّسة للقومية الأفريقانية (انظر إل. تومپسون ١٩٨٥ : ١٠٥ – ١٤٣). وعلى الرغم من أنه لم يكن يشكل حدثًا هامّا فى عملية تكوين المجتمع الأفريقانى قبل سبعينيات القرن التاسع عشر، إلا أنه أصبح منذ تلك الفترة تأكيدًا للتهديدين اللذيْن يشكلان خطرًا على بقاء الأفريقان على قيد الحياة، ألا وهما الإنجليز والسود، وبالتالى أصبحت القصة المزورة والمشوهة للحدث عنصرًا هامّا بالنسبة للأسطورة الناشئة للقومية الأفريقانية. وبدايتها هى إدانة «بيزويدينهوت فريك» بسبب عدم دفع أجر عامل من الخوى خوى، ورفضه إطلاق سراحه بعد نهاية عقد العمل، وحُكم عليه بالحبس، ونظرًا لرفضه الامتثال للحكم يوم ١٠ أكتوبر ١٨١٥، أمر الضابط المسئول بالقبض عليه. وقتله أحد ضباط الشرطة السود لأنه كان يحمل سلاحًا. وأقسم «هانس» أخو «بيزويدينهوت» على أن ينتقم لأخيه، ونظم مؤامرة كان هدفها قلب النظام البريطانى الموجود فى الكاپ حيث كان يكن له، مثل أى أفريقانى، كل الحقد والكراهية.

وفى الثامن عشر من أكتوبر، كان ستون من أتباع «هانس» فى سلاجترزنك عندما أدركتهم قوات البوير والدراجون البريطانية. وهرب «هانس» وعائلته وآخرون إلى الشمال فى منطقة تدعى «زهوسا»، وفى التاسع والعشرين من نوڤمبر وعلى بعد ٨٠ كيلومترًا شمال شرق سلاجترزنك، تصدى «هانس» وزوجته وابنه إلى القوات المكونة من البوير وجنود الكاپ، ومات «هانس» بعد أن أصيب بجروح بالغة. وبعد ذلك، تم محاكمة حوالى ٤٧ متآمرًا فى «يوتينهاج»، وفى ٢٢ يناير ١٨١٦ تم الحكم على ستة منهم بالموت شنقًا. وتم تنفيذ الإعدام فى «ڤناردتسپوس» يوم ٩ مارس ١٨١٦. وبالتالى كان هذا الحدث بمثابة إشارة لإرساء القانون والنظام فى هذه المنطقة الحدودية التى كانت

تعانى من الفوضى، وكان هذا الحدث أيضًا لحظة حاسمة فى تاريخ مستوطنة الكاپ، حيث تم محاكمة المستوطنين البيض الذين أدينوا بتهمة الخيانة وتم شنقهم.

من ڤناردتسپوس إلى سلاجترزنك

لم تثر هذه الأحداث فى تلك الفترة إلا ردود أفعال قليلة، ولم تشر إليها الدراسات التى نشرت قبل سبعينيات القرن التاسع عشر. إلا أن وجهة نظر «هانرى كلويت» ـ التى عبر عنها فى خمسينيات القرن التاسع عشر قائلاً: «لا يمكننا أبدًا أن ننسى سلاجترزنك» ـ كان لها تأثير بالغ فى خلق الأساطير الأفريقانية. وكانت هذه المرة الأولى التى يتم فيها الخلط بين اللفظين: «ڤناردتسپوس» وهو المكان الذى تم فيه تنفيذ عملية الشنق، ولكنه يقع على بعد ٢٠ كيلومترًا من المدينة الأخرى والتى يثير اسمها معانى كثيرة وهى سلاجترزنك (والتى تعنى رقبة الجزارين) حيث كان يأتى وسطاء الجزارين من الكاپ ليشتروا ماشية البوير. وتم استعمال كلمة سلاجتر فى مكان الشنق حيث كانت توحى بالطبع إلى فكرة المجزرة.

فى سبعينيات القرن التاسع عشر وثمانينياته، عندما بدأت المصالح الإمپريالية للبريطانيين تهدد استقلالية جمهوريات البوير، تغير السلوك تجاه الإنجليز الذى تأثر أيضًا بأحداث الماضى. هذا واندمجت أسطورة سلاجترزنك فى الأساطير القومية منذ ١٨٧٧ عندما نشر «دى توا» قصة هذه الحادثة. ووفقًا لكتابه، فإن نتائج الأحداث التى دارت مابين ١٨١٥و١٨١٦ لم تكن تخدم القانون والنظام وإنما كانت تخدم الاستبداد. كانت ثورة «بيزويدينهوت» موجهة ضد الحكومة البريطانية «الظالم الأكبر». وتم وصف البوير الذين تعاونوا مع الحكومة البريطانية بأنهم خونة، أما المتمردون فأصبحوا أبطالاً. وادعى أن الثورة ومحاولة الإنجليز إخمادها كانت سبب النزوح الكبير للبوير وأساس الفكر القومى الأفريقانى (انظر رثاء دى توا فى كتاب موودى ١٩٧٤ : ٤). وأشادت كتب أفريقانية أخرى ببطولات المتمردين (مثل كستيل الذى كان يعرف باسم لينادا). وتم مقارنة الأفريقان فى هذه الفترة بالإسرائيليين: «مثلما دخل الإسرائيليون القدامى أرض كنعان وحماهم الله فيها، فالأمر ذاته بالنسبة لشعبنا الذى أتى من هولندا وفرنسا وألمانيا إلى جنوب أفريقيا بفضل حماية الرب وفقًا للمزمور ٨٠ : ٩ -١٦، وإشعياء ٢٧ : ١ -٣» (إل. تومپسون ١٩٨٥ : ٢٦٨ رقم ٥).

وبينما تم ترسيخ الأسطورة فى نهاية القرن التاسع عشر وتم استعمالها فى الكفاح ضد الإمبريالية البريطانية، كان يجب الحرص على عدم الإفراط فيها لتفادى تفاقم الموقف وتأزمه داخل المجتمع الأبيض (إل. تومبسون ١٩٨٥ : ١٣٢ - ١٣٧). واجتمع فى يوم ٩ مارس ١٩١٦، ألف شخص فى «ڤناردتسپوس» لافتتاح المتحف التاريخى احتفالاً بذكرى المتمردين. وبعث الچنرال «هيرتزوج» وهو مؤسس الحزب الوطنى الأفريقانى بأمنياته الحارة. وكان المتحدث الرئيسى د. «مالان»، وهو الذى سيقود الحزب للفوز عام ١٩٤٨ .وبعد أن أثبت علماء التاريخ الأخطاء الواضحة فى حقيقة الأسطورة، شهدت الأسطورة تحولاً فى الهوية الأفريقانية. إلا أن هذه الأسطورة لم تكن على نفس مستوى أسطورة النزوح الكبير.

الأسطورة السياسية للنزوح الكبير

أصبح النزوح الكبير للبوير من مستوطنة الكاپ إلى ولاية الأورانچ الحرة والترانسڤال (١٨٣٥ - ١٨٤٠) يشكل عنصراً أساسيّا فى خلق أسطورة أصول القومية الأفريقانية. حيث تدَّعى الأسطورة أن الكتاب المقدس أسس هوية البوير، وأنه أثناء مسيرتهم كانوا يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار الذى هرب من مصر (وفى حالتهم هربوا من الاضطهاد البريطانى) متوجهًا إلى أرض الميعاد.

وكان السكان الأصليون السود يمثلون الكنعانيين الذين كانوا يعبدون الأوثان والذين يجب على إسرائيل ألا تختلط بهم، لاسيما بالزواج (انظر إيه. دى توا ١٩٨٤ : ٥٥). ويُحكى أن الرئيس «إم. دبليو پريتوريوس» خاطب بهذه العبارات حشداً كبيراً من الناس:

> **تحدث جلالته مع المهاجرين الأوائل وناداهم بآباء إسرائيل وشبههم بشعب الله المختار. ومثل الإسرائيليين الذين هربوا من مصر لتفادى اضطهاد فرعون، هرب البوير من الحكومة الإنجليزية التى يكرهونها ليشيدوا حكومتهم الخاصة بهم وإدارتهم الخاصة بهم (انظر إيه دى توا ١٩٨٤ : ٦٤ - ٦٥).**

إلا أنه وفقًا لـ «دى توا» (١٩٨٤) فإن الدراسة النقدية للمصادر تعطينا صورة مختلفة. ومن الصعب التصديق أن هؤلاء المهاجرين كانوا يعتبرون أنفسهم فى هذا

الوضع، بل على العكس، يبدو أن الأمر كان مختلفًا. وكان بعض المهاجرين يسترجعون الصور المذكورة فى الكتاب المقدس، حيث كانوا يعتبرون ناتال «الأرض التى تفيض لبنًا وعسلاً» ومسيرتهم فى الصحراء مثل «التيه فى الصحراء»، ولكن هذا لا يكفى لإثبات اعتقادهم بأنهم يتبعون أمرًا إلهيًا مماثلاً للأمر الإلهى لبنى إسرائيل بدخول كنعان. وبالفعل، قبل عام من النزوح، قام مجمع قساوسة الكنيسة الإصلاحية الهولندية فى الكاب بنقد هذه المغامرة؛ حيث تحدثوا عن «الذين تركوا بيوتهم وأماكن عبادتهم، بدون موسى أو هارون، ليقتحموا الصحراء بحثًا عن أرض كنعان لهم لكن بدون وعود أو توجيهات» (دى توا ١٩٨٤ : ٦٩).

أوضح «دى توا» أنه قبل خمسينيات القرن التاسع، لم يزعم البوير أنهم شعب الله المختار (١٩٨٣):

ويجب أن نخلص من ذلك إلى... أنه على الرغم من الزعم القائل بوجود أدلة كثيرة تثبت أن السائرين كانوا يقارنون أنفسهم بإسرائيل الكتاب المقدس وبالشعب الذى اختاره الله... لا نجد أى أدلة فى أى مصدر موثوق فيه قبل سبعينيات القرن التاسع عشر عن هذا (إيه. دى توا ١٩٨٤ : ٧٠ – ٧٣).

ولكن أكد العديد من رجال الدين فى الترانسڤال أن المهاجرين اعتبروا أنفسهم شعبًا مختارًا (إيه. دى. توا ١٩٨٣ : ٩٣٩ – ٤٧).

وفى الحقيقة كان المهاجرون حريصين على الهروب من الظروف المعيشية الجديدة، التى انبثقت من تحرير الإنجليز للعبيد والتى فاقمت النقص فى اليد العاملة، وجمع الإيجارات، ونقص الأراضى والغارات الكثيرة من الزهوسا، وكان ذلك أكثر من تأثرهم بقصة الكتاب المقدس الواردة فى سفر الخروج وقصة أرض الوعد (انظر ليستر ١٩٩٦ : ٦٤).

ولخص قائدهم «پيت ريتيف» أسباب نزوح البوير عام ١٨٣٨ قائلاً: «الخسائر الفادحة التى تحملناها بسبب تحرر العبيد» (انظر أيضًا سببين آخرين ذكرتهما بنت شقيق «ريتيف»: السلب المستمر الذى كان «الكافير» ينتهجونه، وعدم قدرة الحكومة على الوفاء بعهودها[1] فى إل. تومپسون ١٩٨٥ : ١٤٩).

(١) فيما يخص تحرر العبيد كتبت «أنا ستينكامپ»: «إن ما يحزننا ويؤلمنا ليس أنهم حصلوا على حريتهم، ولكن لأنهم وُضعوا على نفس قدم المساواة مع المسيحيين، وذلك يتعارض مع قوانين الله ومع التفرقة الطبيعية بين الأجناس و الديانات. وكان من المستحيل لأى مسيحى مهذب أن يؤمن بهذا، لذلك قررنا وفضلنا الانسحاب للمحافظة على طهارة مذاهبنا وقداستها» (فى إل. تومپسون ١٩٩٥ : ٨٩).

إلا أنه انطلاقًا من سبعينيات القرن التاسع عشر، بدأ مؤرخو القومية الأفريقانية بإعادة تفسير النزوح وفقًا للكتاب المقدس، فى الوقت الذى كان يعانى فيه البوير من الضغط الإمبريالى البريطانى، والذى وصل ذروته أثناء الحرب التى دارت بين الإنجليز و البوير مابين عامى ١٨٩٩و١٩٠٢، وعقب ظروف الحياة الصعبة فى ثلاثينيات القرن العشرين. يتلخص التاريخ المصنوع فيما يلى: بعد ٢٠ عامًا من الاضطهاد، غادر البوير الكاپ بحثًا عن ملجأ فى الأحراش غير المعروفة فى الشمال، وكان حجّا للشهداء. وسبب نزوح البوير مطاردة الجيش الإنجليزى لهم (مثلما طارد فرعون الإسرائيليين) كما كان السود يمثلون الكنعانيين الكفار الذين أزعجوا الإسرائيليين فى كل مكان. وبما أن الشعب طبق إرادة الله، فقد خلصهم من أعدائهم ووهبهم الحرية فى أرض الوعد (موودى ١٩٧٥ : ٥؛ ريتز ١٩٠٠ : ٩٢-٩٣). قتل المتوحشون البرابرة الرجال والنساء والأطفال. أما الباقون على قيد الحياة، فقد طردوهم بفضل ثقتهم فى الله (دى پليسيس فى موودى ١٩٧٥ : ٦). وبعد ذلك سار الباقون على قيد الحياة فى اتجاه الشرق وقاموا بإرسال «پيت ريتيف» وبعض الآخرين إلى زعيم الزولو ليشتروا منه الأراضى، ولكن فيما بعد، وبخيانة الزولو، قتلوا «ريتيف» وأصحابه وحاصروا المهاجرين. «كانت الأرض تمتلئ بآلاف الأعداء، وكان من المستحيل الاعتماد على أية مساعدة إنسانية، حتى الأطفال كانوا يصرخون إلى الله، ووصل صوت الشعب إلى الرب» (دى پليسيس ١٠٤ فى موودى ١٩٧٥ : ٦، انظر أيضًا الصيغة البطولية لـ «پريلر» ١٩٠٩ : ١٥٢-٥٣ فى موودى ١٩٧٥ : ٦). وطلب البوير الذين بقوا على قيد الحياة المساعدة من إخوتهم فى المستعمرة والولاية الحرة:

جاء أندريس پريتوريوس مع جيوشه الشجاعة، وانضم إليهم لمعاقبة العدو وإخضاعه. و حدث ما يعرف بمعركة نهر الدم «بلود ريڤر» فى ١٦ ديسمبر ١٨٣٨؛ حيث حلفوا اليمين المقدس أن يحتفلوا بهذا اليوم كل عام لو أعطاهم الله النصر، وبالفعل نصرهم الله على الآلاف من أعدائهم (دى پليسيس(٩٤) فى موودى ١٩٧٥ : ٦ - ٧).

واستقر إذن البوير فى ناتال بسلام و أسسوا جمهوريتهم «لقد اشترينا الأرض بأموالنا وعمدناها بدمائنا» (ريتز ١٩٠٠ : ١٣ فى موودى ١٩٧٥ : ٧).

وإذا كانت المعاناة التى عاشها البوير أثناء الحرب مع الإنجليز أدت إلى ظهور القومية الأفريقانية وساعدتها، إلا أنه تم إسناد هذا الدور فى العشرينيات إلى ملحمة النزوح الكبير تحت تأثير «چيه. د ى توا، و لانجنهوڤن و دى. إف مالهرب وآخرين» وبالفعل، لم يتم وضع أول حجر للمَعْلَم التاريخى للمهاجر «Voortrekker» إلا فى ديسمبر ١٩٣٨، ولم يتم افتتاحه رسميا إلا عام ١٩٤٩. وحتى وقت قريب، كان الأفريقان يتجمعون فى المدن والقرى يوم ١٦ ديسمبر (يوم العهد) ليجددوا عهدهم مع الله، وبعد خطاب القس كان المثقفون ورجال السياسة ينشدون الأناشيد الدينية، خاصة المزامير ٣٨، ٤٦، ١١٨، ١٣٠، ١٤٦ وتراتيل دينية أخرى (منها الصوت من جنوب أفريقيا، الذى أصبح فيما بعد النشيد القومى). ومنذ ١٩٣٨ اقتنع الأفريقان بانتمائهم إلى الشعب المختار، وأنه عاجلاً أم آجلاً سيمنحهم الله جمهورية جديدة (مووى ١٩٧٥: ٢١).

مئوية النزوح الكبير

ونظم «هنينج كلوپر» أحد مؤسسى جماعة الإخوان قداساً بخصوص النزوح الكبير والعهد المقدس فى بلود ريڤر (ولمزيد من التفاصيل انظر مووى ١٩٧٥: ١٧٥ - ١٨٧). وفى ٨ أغسطس ١٩٣٨، وأمام تمثال «ڤان ريبيك» فى مدينة الكاپ، توجه بالحديث إلى الحشد الكبير الذى جاء ليرى أول عربتى نزوح. وأشار الخطاب إلى قسم العهد لـ «ساريل سيليرز» المزعوم من المهاجرين، وأنهى خطابه بـ «إهداء هاتين العربتين إلى شعبنا وإلى ربنا» (مووى ١٩٧٥: ١٧٩).

وأثار هذا التجمع جوّا احتفاليّا دينيّا واستعمل ألفاظًا ذات رنين بلاغى. وأنشد أحد الشيوخ ترتيلة سمعان (لوقا ٢: ٢٩ - ٣٢) وتم الاحتفال بذكرى جلجثة(*) دينجان، مع بناء مذبح. وأكد «كلوپر» «كان يجب أن تموت حبة القمح القومية قبل أن تطرح غلتها» وقال د. «ڤان رينسبرج»: «بدون موت لن تأتى القيامة». وعلى حافة قبر «ساريل سيليرز»، قال «كلوپر» إن «سيليرز» حمل أول شعلة تحالف بين الله والشعب،

(*) مكان صلب المسيح، طبقًا للعهد الجديد من الكتاب المقدس، أما دينجان فهو ملك الزولو ـ المترجمة.

وتم التصديق على أن مذبح العهد فى بلود ريفر، فقد وفَّى الله بكلمته بشأن التحالف إلا أن الشعب الأفريقانى انتهك هذا الوعد، وقال:

ارجعوا إلى الرب الذى سيكرمنا. . . إن تواجد شعبنا واستمراره فى البقاء ما هو إلا معجزة. إن شعبنا مثل النبات الشائك فى حوريب، يحترق ويحترق ولكن لا يفنى. فكثيرًا ما عرف شعبنا الحزن والانقسام، إلا أنه يرجع دائمًا للاتحاد (كلوپر فى موودى ١٩٧٥: ١٨١).

وهكذا شكلت «وحدة المخاطر» قوة سياسية فعالة خلال العقد اللاحق، وطورت الفكر الجمهورى. ولعبت وسائل الإعلام الشعبية، مثل سرد «پريلر» للسيرة البطولية المقدسة لـ «پيت ريتيف» والسيناريو الذى حرره فى ١٩١٦ لإخراج فيلم المهاجرين، دورًا هامًا فى نشر رؤية مشتركة حول الهوية والقومية الأفريقانية (انظر ليستر ١٩٩٦: الفصل الثالث). وقد أثر هذا الأدب الذى يشيد بالبطولات على التعليم المدرسى، ويرجع ذلك بشكل كبير إلى كتاب اسمه «تاريخ» من عدة مجلدات، ألفه «تيل» وتم إعادة طبعه عدة مرات بعد موت مؤلفه عام ١٩١٩، والذى نقرأ فيه أن المهاجرين يعتبرون أنفسهم الشعب الذى خصه الله؛ وهذا الأمر بديهى بالنسبة للذين نشأوا وكبروا فى البرية (إل. تومپسون ١٩٨٥: ١٨٢).

الأسطورة السياسية للعهد

فى ١٦ ديسمبر من كل عام وخلا ل الاحتفال الذى يُذَكِّر بالمعاناة من الاحتلال أكثر من الانتصار على ملك الزولو دينجان، يحتفل سكان جنوب أفريقيا بأحداث ١٦ ديسمبر ١٨٣٨ والتى قام فيها ٤٦٨ أفريقانيّا بخدمهم الملونين والسود، وحوالى ٦٠ حليفًا أفريقيّا بالدفاع عن أنفسهم فى هجوم شنه حوالى ١٠٠٠٠ محارب من الزولو. وتراجع هؤلاء الزولو أمام البوير حيث كانت حصيلة قتلاهم ٣٠٠٠ قتيل فى ميدان المعركة، ولم يقتل مهاجر واحد على الإطلاق. وأطلق البوير اسم نهر الدم «Blood River» على هذه المعركة، حيث تلطخ النهر القريب بدم الزولو. وبعد ذلك تغير اسم الاحتفال من «يوم دينجان» إلى «يوم النذر» عام ١٩٥٢، ثم إلى «يوم العهد» فى ١٩٨٠. واغتنم السياسيون البارزون هذه الفرصة بشكل واسع لنشر القومية

الأفريقانية. وكان محظوراً بشكل مطلق التشكيك فى جذور هذا الاحتفال وتقاليده، وإلى عهد حديث.

ووفقًا لـ «أندريس پريتوريوس» وناسخ كتبه «بانتجيس»، كان القائد المنتصر ملهمًا بحماس دينى عميق. وعُقد اجتماع دينى حاسم يوم ٩ ديسمبر وكان يوم أحد. وكتب «بانتجيس» أن «پريتوريوس» اقترح على الرجال فى كل الخيم أن يصلوا طالبين العون من الله. واقترح أن ينذروا «أنه إذا أعطاهم الرب النصر سيبنون بيتا له فى المكان الذى يريد». كما اقترح أن يطلبوا مساعدة الله ليساعدهم فى تحقيق هذا النذر، وأن يسجلوا تاريخ هذا النصر فى كتاب ويعلمونه ويحتفلون به حتى نهاية الدهر. وقام «سايل سيليرز» وهو أحد القدماء برئاسة المهمة الدينية فى الخيمة التى كان يتواجد بها «پريتوريوس» وشدا بالمزمور (٣٨: ١٢ - ١٦) ثم قاد الصلاة، ثم وعظ بحديث يستند على (سفر القضاة ٦: ١-٢٤)، ثم قاد صلاة تلا فيها النذر. وبعد إنشاد (المزمور ٣٨: ١٢ - ٢١) أنهى القداس بإنشاد (المزمور ١٣٣). وبعد الانتهاء من وصفه للمعركة، أضاف «بانتجيس»: تم توجيه الصلوات والشكر لله، وبعد الخدمة [العبادة]... بعثت القيادة مجموعة قوية تطارد الزولو (إل. تومپسون ١٩٨٥: ١٥٢ - ١٥٣).

وبعد ذلك أطلق على الخيمة الأساسية اسم «پيترماريتزبورج» على شرف «پيت ريتيف» و «جارت ماريتز» وأصبحت بعد ذلك عاصمة جمهورية ناتال. وهناك بعض الأسباب التى تجعلنا نشكك فى مدى صحة تاريخية هذا النذر. فالمؤرخون الأفريقان الأوائل لا يشيرون إليه، وإذا كان «پريتوريوس» قد حوّل منزلاً متواضعًا إلى كنيسة فى ١٩٤٨، فلا يوجد أية وثيقة أو مستند يثبت أنه قام بذلك للوفاء بالنذر. ولم يستعمل المبنى إطلاقًا بعد ١٨٦١ للخدمات الدينية، وإنما تم استغلاله فى نشاطات تجارية قبل أن يتم تحويله إلى متحف للمهاجرين عام ١٩٠٨. هذا بالإضافة إلى أنه تم تجاهل الاحتفال السنوى بهذه المعركة لمدة ربع قرن.

ولكن فى عام ١٨٦٤، أقنع كل من «پى. هويت» و«ف. ل كاشيت» وهما قسيسان هولنديان إصلاحيان، الجمعية العامة للكنيسة الإصلاحية الهولندية فى ناتال بإقامة احتفال دينى بيوم ١٦ ديسمبر كيوم للشكر، ولكن عندما نظم «كاشيت» احتفالاً عام

١٨٧٦على ضفاف نهر الدم، لم يتم الإشارة إلى النذر المزعوم، إلا أن «هوفستيل» نشر أول قصة لولاية أورانج الحرة فى عام ١٨٧٦ ، تضمنت احتضار «سيليرز» (١٨٧١) وركزت على تقوى «پريتوريوس» وعلى دور «سيليرز» . وأمام العدد الهائل للزولو، قرر «پريتوريوس» و«سيليرز» أنهما ـ مثل اليهود فى العهد القديم ـ «نحن أيضًا نَعدُ الرب أنه إذا أعطانا النصر على أعدائنا سنقدس هذا اليوم مثل السبت، كل عام» . تختلف رواية «سيليرز» عن رواية «بانتجيس» ، فعنده، أعلن النذر على الملأ وليس كما يروى «بانتجيس» فى خيمة «پريتوريوس» . وثانيًا لم يشر إلى إنشاء كنيسة كذكرى وشكر لله (إل . تومپسون ١٩٨٥ : ١٦٧) .

هذا كما أنه لم يتم الإشارة إلى النذر عندما أعلنت حكومة الترانسڤال فى عام ١٨٦٥ يوم السادس عشر من ديسمبر على أنه يوم احتفال رسمى .

ولكن عندما ثار الأفريقان عام ١٨٨٠ بعد أن أعلن «ثيوفيل شيپستون» أن الترانسڤال مستوطنة بريطانية عام ١٨٧٧ ، جددوا العهد وذلك ببناء جبل صغير من الحجارة كان يرمز إلى التحرر من سيطرة السود القديمة والمعركة المستقبلية للتحرر من الإنجليز . ومنذ ١٨٨١ ، كانت الحكومة تنظم كل خمس سنوات احتفالات وطنية ليوم «دينجان» ، ولكن لم يكن هناك إشارة للنذر أثناء احتفال عام ١٨٨١ ، ولكن فى ١٨٩١ ، تم طبع رواية «سيليرز» فى البرنامج، وتم بناء معلم تاريخى فى مكان الجبل الصغير من الحجارة وتحدث الرئيس «كروجر» عن معركة نهر الدم .

وفى ديسمبر ١٨٩٥ ، قام رجال الدين والرجال الرسميون فى الترانسڤال بتنظيم احتفال قرب «وينين» فى ناتال؛ حيث جمعوا هيكل «ريتيف» العظمى وهياكل الضحايا الآخرين فى مجزرة ١٨٣٨ ، ووضعوها فى قبر صغير تم بناؤه ليكون أساس النصب التذكارى الجديد . هذا وفى نهاية القرن، تم إصدار عدد كبير من المؤلفات بشأن النزوح الكبير، ركز الكثير منها على الطموح الدينى للمشاركين . ويلاحظ «ثيل» أن المجموعة كانت تشبه مجموعة صلاة متنقلة أكثر من جيش حربى حديث (إل .

(١) يشير «ليونار تومپسون» إلى أن نذر «سيليرز» لم يكن إلا وعدًا ووفاء وإخلاصًا للقائد، ونجد مثل هذا الأمر فى تاريخ مجتمع البوير (١٩٨٥ : ١٦٢ : ١٦٣) .

تومبسون ١٩٨٥ : ١٧٢ - ١٧٧)، فالبعض يتكلمون عن النذر وهناك من تجاهلوه تمامًا[١].

وفى نهاية القرن التاسع عشر، قام كل من رجال الدين والساسة والمثقفين فى الترانسڤال وولاية أورانج الحرة بإعادة إحياء هذا اليوم وتمجيده وإعطائه طابعًا قانونيًا وشرعيًا، واحتفلوا بإحدى روايات ١٦ ديسمبر ١٨٣٨ بهدف التأكيد على الفخر بالهوية الأفريقانية ضد العدوان البريطانى. لكن بتراجع الإمبراطورية البريطانية خلال القرن العشرين، غيَّر الأفريقان اللاحقون تفسير الأحداث واستعملوها لدعم الهوية الأفريقانية فى مواجهة القومية الأفريقية. وهذا مثل صارخ على الأسطورة السياسية الكلاسيكية: اتساق جزئى مع الحقيقة التاريخية، وإعطاء شكل للأسطورة فى وقت متأخر وتطوير سريع للأحداث، ونشر محموم لأهداف سياسية، ومرونة كبيرة للتأقلم مع الظروف المختلفة. ويكمن فرقها الرئيسى عن أسطورة سلاجترزنك فى بعدها الدينى ومحوريته فى بناء الهوية الأفريقانية.

الأسطورة السياسية للأعلوية العنصرية

تستند الأسطورة السياسية للقومية الأفريقانية إلى فرضية تقسيم البشر طبقًا للعرق ـ رغم التعريف غير الدقيق لذلك ـ وإلى أن الأعراق يجب أن تحافظ على ذلك التقسيم، تنفيذًا للإرادة الإلهية. و بالتالى يعتبر الفصل العنصرى (الأپارتهايد) شرطًا أساسيًا فى الحياة. ومنذ وصول البوير عام ١٦٥٢ إلى جنوب أفريقيا، كانوا يسلكون نفس سلوك المستعمرين الأوروپيين ويتوافقون، فنجد أنهم رسموا نفس الأنماط التقليدية للسود: وثنيون بدون حياء، فسقة، سارقون، كذابون، كسالى، قذرون، ويأكلون لحم البشر، يتصرفون كالحيوانات[١]. وأوضح تقرير نشرته لجنة حكومية استعمارية فى ناتال عام ١٨٥٢ أن الفكرة السائدة لدى الأفريقان هى أن الرجل الأسود يجب أن يُجلد حتى يعمل، وأنه غير قادر على أن يعرف أين مصالحه الحقيقية. وكان هؤلاء الأفريقان يتحدثون من وجهة نظر دنيوية وپرجماتية وليس من وجهة نظر لاهوتية وفلسفية وتاريخية(إل. تومبسون ١٩٨٥ : ٨٣ -٨٤).

(١) فى قاموس أكسفورد الإنجليزى (١٩٨٣) تعنى كلمة «هوتونتوت» الشخص الذى لديه ثقافة منحطة.

نظرية سلسلة الكائنات الكبرى، والتى وفقًا لها يمكن ترتيب الأجناس البشرية بشكل تدريجى من الجنس الأفضل (الأوروپيين) إلى القردة، لا يمكن تطبيقها كما هى على السود الأفارقة، لأن أدمغتهم غير مختلفة عن الأوروپيين، ولكن بدون شك كانوا يشكلون أجناسًا بشرية مختلفة. فلكل شعب خصائصه الجسدية والثقافية الثابتة والخاصة به، والتى تقع فى درجات مختلفة على سلم الحضارة، من الرجل المتحضر (أى الأوروپى وأفضله الإنجليزى) إلى المتوحش (إل. تومپسون ١٩٨٥: ٩٠ - ٩٣). وبقدر كمية الدم الأبيض الذى ربما حصلوا عليه فى شمال أفريقيا، قد يرتفع بعض الأفارقة إلى مستوى عال من ثقافة الأوروپيين. واعتبروا أن ذكاء الطفل الأسود يتوقف عن التطور عند سن البلوغ(*).

كان كل سكان جنوب أفريقيا فى النصف الأول من القرن العشرين يظنون أنهم ينتمون إلى جنس أعلى من جميع الأجناس الأخرى الموجودة فى جنوب أفريقيا، وتتجلى تلك الأعلوية فى ديانتهم والتكنولوچيا والسياسة والفنون، وكذلك فى عظمتهم وثروتهم. ويستند الدعم العلمى لهذه المواقف والسلوكيات على تأكيدات مستنتجة من دراسات طبية وراثية استخدمت مناهج علمية غير مناسبة وعلى تحليلات زائفة (جولد ١٩٨١). ومهما كانت الظروف، فإن عقدة الأعلوية العنصرية بررت استعباد السكان الأصليين، ونهب أراضيهم؛ مثلما قام بذلك الإمپرياليون البيض فى بقية القارة السوداء وفى آسيا وفى الكاريبى، بالإضافة إلى استغلال البيض للأفرو أمريكان؛ حيث كان يبرر هذا التفوق الهيمنة السياسية للبيض واستغلال اليد العاملة الملونة.

الكتاب المقدس ولاهوته فى قلب التعصب الأفريقانى

نسج مجتمع جنوب أفريقيا خيوطًا كثيرة، تعدت تلك الخيوط فى النهاية ذاتيتها المنفصلة. تمثل العوامل اللاهوتية أحد هذه الخيوط، وقد أثرت على كل تطور لهذا المجتمع. والدلائل والبراهين على التأثيرات الكتابية واللاهوتية عديدة للغاية. وقد تحدث سير «چون روبينسون» الذى كان رئيس وزراء ناتال عن «هؤلاء الدعاة الذين

(*) وشبه العلماء ذلك بقصة پيتر پان ـ المترجمة.

أثروا على فكر المؤمنين ووجدانهم، بحيث أسهم ذلك بشكل كبير فى الوضع الحالى» (إل. تومپسون: ١٩٨٥: ١٧٢). وأصر العديد من الزعماء السياسيين، بالأخص «پول كروجر» الذى كان رئيس جنوب أفريقيا من ١٨٨١ إلى ١٩٠٢، أصروا بشكل بالغ على تعاليم «كالڤين» فيما يتعلق بوحى الله إلى الشعب وعهده معه الذى لا ينطبق فقط على فترة العهد القديم، بل وأيضًا على عصر «كروجر».

ويرى «كروجر» أن الله اختار شعبه فى مستوطنة الكاپ وقاده إلى الصحراء، وبعد أن طهره، أبرم عهدًا معه وتم الانتصار على العدو واستقر البوير على الأرض التى أعطاهم إياها بكل عدل. كما يرى أن الله سمح لليد الإمپريالية البريطانية أن تبطش بهذا الشعب لأنه لم يف ببنود العهد بشأن إحياء ذكرى العهد لمدة تزيد عن ٣٠ عامًا. وفى پارديكرال عام ١٨٨٠، اعترف أن شعب جمهورية الترانسڤال لم يكن فقط «شعبًا من شعوب الله، وإنما شعب الله الخاص» (دى پليسيس هامش، ١٠٣، ٨٩ فى مووددى ١٩٧٥: ٢٦ - ٢٧). ولكن هذا الاختيار كان يتطلب من الشعب ولاءً وإخلاصًا مطلقين. إن النهاية الإعجازية لحرب ١٨٨١ كانت تشكل برهانًا قاطعًا على اختيار الله لشعب الترانسڤال. وكان اللاهوت الذى يرتكز عليه يستند على حلقة المعصية ـ العقاب ـ الثواب، والتى تتجلى فى «المزمور ٨٩» وهو مزموره المفضل (٨٩: ٣١ - ٣٤).

وبالنسبة لـ «كروجر» لا ينتمى الأفارقة السود إلى شعب الله المختار، ومصيرهم هو أن يبقوا للأبد خاضعين لسادتهم البيض. وكان هجوم الإنجليز على الجمهوريات بمثابة هجوم الشيطان على كنيسة الرب. وكان من الممكن للإنجليز أن يكون لديهم الآلاف من الرجال فى المعركة ضد بعض المئات من البوير، لكن هؤلاء كان على رأسهم المسيح السيد الأعلى للسماء والأرض. وفى عام ١٩٠٠، قارن «كروجر» معاناة شعبه بمعاناة يسوع، وقال إن معاناتهم، مثل معاناة المسيح فى طريق الآلام والجلجثة [مكان صلب المسيح طبقًا للأناجيل]، قبل رؤية فجر الحرية (مووددى ١٩٧٥: ٣٢ - ٣٦). وقد دعا «كروجر» الچنرال «سموتس» إلى قراءة سفر يوئيل لأن مواضيع التدمير (١: ٦ - ١٠) وإعادتهم ورجوعهم (يوئيل ١: ١٥ - ٢: ١، ٣: ١ - ٢١) ستواسيه.

القومية المسيحية عند «أبراهام كويپر»

وبالإضافة إلى عوامل أخرى شكلت ظهور القومية الأفريقانية وبلورتها، نجد فكرة إنشاء دولة قومية مسيحية على أساس القومية المسيحية لدى «كالڤين» فى صميم أيديولوچية رابطة الإخوان. وهذا يعنى أن الله هو مصدر السلطات، وأنه على أية حكومة أن تسترشد بالمسيحية الكالڤينية التى فسرها وحدثها فى الكنيسة الإصلاحية الهولندية «أبراهام كويپر» (١٨٣٧ - ١٩٢٠) والذى جعل مصطلح (القومية المسيحية) شعبيّا. كان «كويپر» متأكداً من أن الكالڤينيين يشكلون قلب المجتمع، وأن مهمته تتمثل فى جعل كل وجوه الحياة تحت ظلال الله. وكانت النظرية اللاهوتية فى جنوب أفريقيا تفيد كمعيار للمجتمع. وعلى الرغم من خسارة البوير، كان «كويپر» متأكداً من أنهم سينتصرون فى نهاية المطاف بشرط أن لا يتخلوا عن الإيمان الإصلاحى لآبائهم. ووفقًا لرأيه، فإن الله خلق أجناساً بشرية مختلفة من حيث العرق واللون والثقافة، يجب أن نقبلها كما هى. ويشير «بلومبرج» إلى تأثير«كويپر» على الأفكار الأساسية المكونة للقوميين الأفريقان. فالمبدأ القومى يجب أن يستوحى دائمًا من المبدأ المسيحى. والكالڤينية شاملة بل هى عالمية؛ فكل الأمور المتعلقة بالإنسان من اختصاصاتها، فهى إيمان عالمى ومتفتح يمكنه التأقلم مع القومية (بلومبرج ١٩٩٠ : ١٠). واختار الأفريقان أن يكونوا حرَّاس الأمة المسيحية وذلك بالاعتماد على الكتاب المقدس كمصدر أول فى الحياة السياسية. ولكن دار نزاع بين لاهوت «كويپر»وأحد أشكال القومية الأكثر علمانية وذلك عند رجوع أكاديميين من ألمانيا مثل «ڤيرورد»، الذى سيصبح فيما بعد رئيس الوزراء و الدكتور «نيكولاس ديديريش»، والذى أصبح وزير المالية وبعد ذلك رئيس جمهورية جنوب أفريقيا. فبالنسبة لهم، ينهض مفهوم القومية على فكرة الشعب الذى تربطه ثقافة وتاريخ مشتركين. ولكن نظرتهم هذه لأمة تربطها اللغة والثقافة والتاريخ الواحد أوجدت قضية مشتركة مع الأفريقان ذوى العاطفة الدينية، والذين كانوا يعتبرون أنفسهم الشعب الذى اختاره الله. فالإنسان مدعو للانتماء إلى مجتمع قومى«إنه فقط داخل الأمة، وهى المجتمع الإنسانى الأكثر شمولاً والأكثر تكاملاً، يستطيع الإنسان أن يحقق ذاته بشكل كامل وشامل» (ديديريش فى مودى ١٩٧٥ : ١٥٦ - ١٥٨). وبالتالى فإن المبادئ المسيحية البروتستانتية والقومية الثقافية هما أساس الأمة. وكان «ديديريش» يرفض أية أيديولوچية أو مذهب يدعو

للمساواة بين البشر. حيث يرى أن تنوع الأمم ذاته وضعه الله، والأهم من هذا وذاك أن الله هو الذى خلق كل هذه الأمم حتى تمارس هذه الأمم إرادة الله (فى مـوودى ١٩٧٥ : ١٥٩). وأخيراً يرى أن خدمة الأمة هى خدمة الله، ومن هنا يفسر التقديس شبه الكامل للأمة التى ما فتئت أن أصبحت إلهًا.

القومية والكتاب المقدس

يشكل الكتاب المقدس لدى الوعى الأفريقانى حجر الأساس (انظر لوبسر ١٩٨٧) والخطاب الكتابى يؤثر على الخطاب السياسى. ويتحدث «لانجنهوڤن» عن شهداء النزوح الكبير «أمة أفريقانية تستحق أن تحمل التاج المكتسب على طريق الصليب، الذى خاضه آباؤهم وأفنوا حياتهم فيه». ولكن لا تنتهى هذه القصة عند هذا الحد فى جنوب أفريقيا، لا سيما عند المعركة ضد «دينجان»، بل تستمر فى المستقبل وتؤدى إلى إعادة نهوض الجمهورية(فى موودى ١٩٧٥ : ١٤). ولكن خلال فترة ١٩٢٠ -١٩٥٠ نشهد انتشاراً سريعًا للمدن فى المناطق التى يقطنها الأفريقان. وأدى هذا التمدن إلى إحداث عدة تغيرات فى المجتمع، أهمها ارتفاع شديد فى الجماعات الدينية المدنية للكنيسة الإصلاحية. وفى هذه الظروف سيكتشف قراء الكتاب المقدس الذين كانوا مزارعين مستقلين وملاكًا ذوى ثقافة أصلية، أنهم مجرد مزارعين بسطاء فى ثقافة غريبة، وفى أدنى السلم الاجتماعى (انظر تفاصيل دايست ١٩٩٤ : ١٤ - ١٥). ولم تكن الكنائس الأفريقانية مهيأة لهذا التغيير. بالإضافة إلى تواجد السود فى المدن، وتزاحمهم للحصول على عمل بأجور بخسة، تزيد من حدة غضب السكان الذين يتكلمون اللغة الأفريقانية، والذين بدءوا يصرون على تطبيق مبدأ «عدم المساواة» بين البيض والسود (انظر دايست ١٩٨٦).

خروج البوير

وعلى الرغم من أنه ليس هناك أدلة على أن مهاجرى النزوح الكبير كانوا يعتبرون أنفسهم الشعب المختار المتوجه إلى أرض الوعد، فقد تم استعمال هذا المصطلح الكتابى بشكل كبير لمساندة أسطورة أصول القومية والتعصب ودعمها فى جنوب أفريقيا، مثلما توضحه هذه المقارنة البسيطة مع إسرائيل الكتاب المقدس(انظر دايست ١٩٩٤).

إسرائيل	الأفريقان
ـ جاء بنو إسرائيل من فلسطين إلى مصر	ـ جاء الأفريقان من أوروبا إلى أفريقيا .
ـ وقعوا تحت سيطرة الحكام الأجانب .	ـ وقعوا تحت وطأة الإنجليز .
ـ هربوا من مصر إلى كنعان .	ـ هربوا من مستوطنة الكاپ إلى الشمال .
ـ اعتبروا الأمم كثيرة وقوية .	ـ اعتبروا السود أعداء كثيرين وأقوياء .
ـ امتلكوا بمعجزة أرضًا جديدة .	ـ امتلكوا بمعجزة أرضًا جديدة
ـ أبرموا عهدًا مع الله .	ـ أبرموا عهدًا مع الله .
ـ أقاموا نُصُبًا تذكارية .	ـ بنوا كنيسة كذكرى لـ «سيليرز» .
ـ قام الأجداد بنقل ملحمتهم إلى الأسلاف .	ـ قام الأجداد بنقل ملحمتهم إلى الأسلاف .

وجد المفكرون الأفريقان فى ثلاثينيات القرن العشرين ـ الذين تحسروا على نقص الشعور الدينى، وتزايد العلمانية بين الأفريقان «البيض المساكين» فى الحضر ـ ملاذًا روحيًا فى جامعة كوپير الحرة فى أمستردام، وطوروا كالڤينية البوير الخاصة بهم، والتى قامت على الإحساس الصرف بالكتاب المقدس(دايست ١٩٩٤ : ١٨ – ١٩) .

كان هذا المذهب يدعو إلى قراءة بسيطة، وواقعية فى الوقت ذاته، لسفر التثنية، وكان دوره حاسمًا فى وضع سياسة الأپارتهايد. وكانت المواعظ و منشورات الكنيسة الإصلاحية الهولندية تُذكِّر بدون انقطاع قرَّاء الكتاب المقدس بـ (كايروس ـ Kairos) خلال اللحظات التى كانوا فيها، مثل موسى، على وشك أن يشهدوا قيام جنوب أفريقيا بيضاء لأبنائهم. ولكن كان الأفريقان يعلمون أن وضعهم، على غرار الإسرائيليين، مهدد فى أية لحظة (انظر ستوهلمان ١٩٩٠ : ٦٢٦). ومثل موسى، كانت السلطات الدينية تعتقد أن بقاءهم يعتمد على تطبيق أوامر الله، لا سيما تلك التى تقول بالفصل بين الأمم، كما أمر بها الله وذلك وفقًا لتفسيرهم لسفر التثنية (٤ : ٣٧ –

٣٨، ٧: ٧ – ٨، ١٠: ١٤ –١٥). وإذا فرق الله بين الأمم وفصل بينها فليس لأى أحد الحق فى جمعها. ووفقًا لقراءتهم الخاصة لسفر التثنية، فإن هذا السفر يشجع على جمع شمل الأفريقان من جهة، وفصلهم عن السود من جهة أخرى. وكتب «چى دى. توا» بشأن سفر التثنية قائلاً:

أولاً: لا يمكن لأحد أن يفرق ما جمعه الله. وهذا أساس حملتنا الدفاعية بشأن الاتحاد بين الأفريقان... وثانيًا: لا يمكننا أن نجمع ما فرقه الله. فرغبة الله تكمن فى التعدد.. وبالتالى لا نقبل المساواة كما لا نقبل جعلنا لقطاء (فى دايست ١٩٩٤: ٢٣).

وكتب «لوتس»:

من هذا المبدأ الإصلاحى بشأن الجماعات المنفصلة داخل مملكة الرب، تنبثق سياستنا بشأن الأپارتهايد فى الكنيسة وفى الدولة. هذا مبدأ عالمى، والذى وفقًا للكتاب المقدس والطبيعة، قام بوضعه الخالق الأعلى، والذى يجب أن يدافع عنه الشعب الأفريقانى وكنيسة البوير بقوة، لاسيما ضد سياسة المساواة فى الليبرالية الحديثة (فى دايست ١٩٩٤: ٢٣).

وهذا يعنى بوضوح أن التنوع الذى يدعو إليه الكتاب المقدس هو أفضل من المساواة التى ينادى بها الإنسان. والفصل بين الشعوب يعتمد على الكتاب المقدس، أما الدعوة إلى المساواة بين الأجناس فما هى إلا ابتداع إنسانى. يقدم الحظر بشأن الاختلاط بالسكان الأصليين ـ الذى يتم ذكره فى بعض تفاسير سفر التثنية(*) (٧: ٣ –٤، انظر

(*) فى الكتاب المقدس: ومتى أدخلكم الرب إلهكم إلى الأرض التى أنتم ماضون إليها لترثوها، وطرد من أمامكم سبع أمم، أكثر وأعظم منكم، وهم الحثيون والجرجاشيون والأموريون والكنعانيون والفرزيون والحويون واليبوسيون. وأسلمهم الرب إليكم وهزمتموهم، فإنكم تحرمونهم. لا تقطعوا لهم عهدًا، ولاترفقوا بهم، ولا تصاهروهم. فلا تزوجوا بناتكم من أبنائهم... فيحتدم غضب الرب عليكم ويهلككم سريعًا. ولكن هذا ما تفعلونه بهم: اهدموا مذابحهم وحطموا أصنامهم وقطعوا سواريهم وأحرقوا تماثيلهم.

لأنكم شعب مقدس للرب إلهكم. فإياكم قد اختار الرب إلهكم من بين جميع شعوب الأرض لتكونوا شعبه الخاص. ولم يفضلكم الرب ويتخيركم لأنكم أكثر عددًا من سائر الشعوب، فأنتم أقل الأمم عددًا. بل من محبته، وحفاظًا على القسم الذى أقسم به لآبائكم، ، أخرجكم بقوة فائقة، وفداكم من نير عبودية فرعون ملك مصر. فاعلموا أن الرب إلهكم هو الله، الإله الأمين الوفى بالعهد والإحسان لمحبيه وحافظى وصاياه إلى ألف جيل. وهو يجازى مبغضيه علنًا، فيستأصلهم ولا يتمهل، بل يسرع فى معاقبة من يبغضه. فأطيعوا الوصايا والفرائض والأحكام التى أوصيكم بها اليوم لتمارسوها. فإن استمعتم إلى هذه=

كوهين ١٩٨٣ ، ديون ١٩٨٥ ، أوكنيل ١٩٩٢) ـ الأساس الكتابى لقانون جنوب أفريقيا الخاص الذى يمنع الزواج المختلط حتى يتم المحافظة على طهارة الأفريقان . وذلك مثل الإسرائيليين الذين كانوا أقلية ، ولكن بمساعدة الله حصلوا على الأرض ، كذلك اعتبر الأفريقان الكالڤينيين أنهم بأمر إلهى امتلكوا الأرض . ومثل مؤلفى سفر التثنية ، لم يكن الكالڤينيون يبالون على الإطلاق بفكرة أن هذه الأرض كانت مأهولة بالسكان قبلهم . وكان الأهم هو الاحتفال بالاحتلال أكثر من الوقوف عند مسائل تاريخية تافهة أو أقل شأنًا .

وأثناء الاحتفال بالذكرى المئوية لمعركة نهر الدم يوم ١٦ ديسمبر ١٩٣٨ ، طور د . «مالان» موضوع النزوح الكبير الثانى ، فمثلما انتصر الأفريقان على السود فى معركة نهر الدم فى عام ١٨٣٨ ، سيقومون بنزوح آخر فى اتجاه المدن حيث كانت ساحة المعركة الجديدة هى سوق العمل :

هنا فى نهر الدم أنتم على أرض مقدسة . إذ تمت هنا الخطوة الحاسمة التى حددت مستقبل جنوب أفريقيا والحضارة المسيحية فى بلدنا ، والتى ساعدت على الحفاظ على الجنس الأبيض وسلطته . . . وأنتم على حدود قرنين . ففى الخلف ترون عام ١٨٣٨ ...وفى نهاية الطريق غير الواضحة لجنوب أفريقيا تلمحون عام ٢٠٣٨...حيث ترون فى ١٨٣٨ آثار عربات المهاجرين . إن نهر الدم هو الآن فى المدن . . . هذه المسيرة الجديدة لن تبعدكم عن مراكز الحضارة . . . ولكن رجوعًا من الأرياف إلى المدن . . . واليوم يتنافس السود والبيض على سوق العمل . . . . . حرية أجدادنا كانت قبل كل شىء المحافظة على جنسنا كبيض . وتدركون بشكل أفضل اليوم أن واجبهم لجعل جنوب أفريقيا أرض الرجل الأبيض ، أصبح يشكل واجبكم الأكبر (موودى ١٩٧٥ : ١٩٨ – ٢٠٠) .

= الأحكام وأطعتموها وعملتم بها ، فإن الرب إلهكم يحافظ لكم على العهد والإحسان كما حلف لآبائكم . ويحبكم ويباركم ويكثركم ، ويبارك ثمرة أحشائكم وغلة أرضكم من قمح وزيت ، ويزيد من إنتاج بقركم ونعاجكم على الأرض التى أقسم لآبائكم أن يهبها لكم . وتكونون مباركين أكثر من جميع الشعوب ، فلا يوجد عقيم ولا عاقر فيكم ولا فى بهائمكم . ويقيكم الرب من كل علة ، وكل أمراض مصر الخبيثة التى عاينتموها ، ولا يصيبكم بها ، بل يجعلها على مبغضيكم . وتستأصلون جميع الشعوب الذين يسلمهم الرب إليكم ، فلا تشفقوا عليهم ولا تعبدوا آلهتهم لأن ذلك شرك لكم .

وبالتالى لعبت العوامل اللاهوتية والكتابية دوراً مهمّا لدعم الأيديولوچية القومية والمتعصبة للأفريقان، الذين كانوا يتطورون وفقًا للظروف المتغيرة. وبلا شك لقى هذا الدعم اللاهوتى الكتابى السائد معارضة داخل الكنائس الإصلاحية الهولندية. وبالفعل تم نقد سياسة الأپارتهايد نقداً لاذعًا، حيث وصفها علماء لاهوت ورجال دين على أنها انشقاق عن الكنيسة، وغير مقبولة لأنها مخالفة للمبادئ.

الأسطورة والتاريخ والعلم والأخلاق

يكمن فى صميم التاريخ الأفريقانى لجنوب أفريقيا الاعتقاد التام بأعلوية الجنس الأبيض. وأكد الچنرال «هرتزوج» أن كلمة « أوروپى» تعنى فى جنوب أفريقيا الحضارة وإذا اختفى الرجل الأبيض أو انقرض، فمعنى ذلك بلا شك اختفاء الحضارة (موودى ١٩٧٥ : ٢٦١). ومقارنةً بالرجل الأبيض المتطور، فإن الزنجى هو طفل عمره ٨ أعوام له دين ومعتقدات، ولكنه لا يملك الفن والعلم، حيث إنه لا يعرف إلا أساسيات بسيطة للغاية. وبينما كان كل العالم تقريبًا يتوجه توجهًا معاكسًا، كانت جنوب أفريقيا تواصل سياسة الأپارتهايد، ومنذ ١٩٨٠ أصبحت تشكل ظاهرة فريدة من نوعها: دولة صناعية ذات «حكم اللون ـ Pigmentocracy» (إل تومپسون ١٩٨٥ : ١٩١).

ولمواصلة مساندة نظام الفصل العنصرى فى عالم أصبح فيه التنوع العرقى طبيعيّا، كان من الضرورى إعادة تأكيد الأساس الأيديولوچى وإعادة كتابة التاريخ وإعادة تفسير الأساطير؛ فتم التأكيد على الفصل بين الأجناس المتوارث، وبالطبع التأكيد على أن البيض كانوا متفوقين على السود بآلاف السنين، وبالتالى كان الفصل حتميّا وضروريّا. وفيما يخص الأصول، فالسود ليس لديهم حجج تفوق حجج البيض لامتلاك الأرض لأنهم أتوا من الشمال، وبالتقريب فى الفترة التى وصل فيها البيض إلى الجنوب، وأنهم فى كل الأحوال كانوا نصف رُحَّل [بَدْو] ونصف حضريين. (انظر أخبار هيئة الاستعلامات الحكومية فى إل. تومپسون ١٩٨٥ : ١٩٩-٢٠٠). وتم الرجوع إلى عناصر وأحداث تاريخية راسخة فى الأساطير القومية (سلاجترزنك، النزوح الكبير، النذر الخ) وكذلك إلى براهين لاهوتية وكتابية لتشكيل نص الخطاب الذى يشيد بالقضية الأفريقانية ويدافع عنها.

ولكن بعد الحرب العالمية الثانية، قام مؤرخو الأجناس البشرية وعلماؤها وعلماء اللاهوت بدراسة عميقة ومفصلة لكل مكونات تاريخ جنوب أفريقيا، التى تتميز بالطابع القومى والمتعصب، وبدأ العديد منهم فى مناقشتها. وبهذا الشكل تم تفكيك أساطير سلاجترزنك و النذر والأرض الخالية.

وأثبت «ريشارد إلفيك» أن جميع الرجال الذين قابلهم الهولنديون فى المنطقة الغربية من الكاپ، كانوا أعضاء فى نفس چينات السكان الذين عاشوا فى المنطقة منذ آلاف السنين (١٩٧٧). وكشف استعمال الكربون [١] ١٤ وجود فخار يرجع إلى العصر الحديدى الأول فى الترانسڤال (حوالى عام ٣٠٠ ق.م) أسطورة الأرض الخالية. وقد عاش أجداد سكان بانتو جنوب أفريقيا فى المنطقة قبل قدوم الهولنديين بـ ١٤٠٠ عام. وكانت هناك مجتمعات إنسانية مارست الصيد البرى والبحرى، وجمعت النباتات القابلة للأكل وذلك خلال عدة آلاف من السنين. ومنذ العام ١٠٠٠ قبل الميلاد، كان هناك مزارعون فى ناتال وفى ضاحية الكاپ والترانسڤال وسوازيلاند وبوتسوانا الشرقية وشمال شرق ولاية الأورانچ الحرة[٢].

أما الأسطورة السياسية لسلاجترزنك التى اتخذت شكل الأسطورة المعادية للإنجليز، فقد بدأت تضعف عندما اجتمع الإنجليز و الأفريقان لمواجهة خطر الأغلبية الأفريقية. و فى الخمسينيات، اختفت تمامًا هذه الأسطورة من الكتب المدرسية فى جنوب أفريقيا، كما قللت الأبحاث التاريخية فى الثمانينيات من شأنها بشكل أكبر. ولم تكن خسارة كبرى؛ لأن هذه الأصول المعادية للإنجليز أصبحت مزعجة، وبما أنها كانت أسطورة علمانية، لم تعطِ لها الكنائس الأفريقية اهتمامًا كبيرًا.

استمرت معركة نهر الدم والعهد (١٨٣٨) رموزًا رئيسية فى الهوية المسيحية الأفريقانية. ولكن فى مارس ١٩٧٩، نظمت جامعة جنوب أفريقيا مؤتمرًا كان

(١) الكربون ١٤ نظير مُشع من نظائر الكربون، وزنه الذرى ١٤، وهو أثقل من الكربون العادى ١٢. يستخدم العلماء الكربون المشع لتحديد عمر الحفريات، والأنواع الأخرى من الآثار القديمة. ويستخدمه الباحثون أيضًا لدراسة بعض العمليات البيولوچية ـ (المترجمة).

(٢) انظر إل. تومپسون ١٩٩٥ : الفصل الأول بالإضافة إلى ملخص شهادات تم الإدلاء بها، وانظر المراجع فى ماركس ١٩٨٠.

المتحدث الأساسى فيه البروفيسور «فلوريس فان چارسڤيلد» وكان متوقعًا أن يتكلم عن العهد من وجهة نظر علمانية، ويشكك فى بعض عناصر هذه الأسطورة. وبينما هو متوجه إلى المنصة، قامت مجموعة من المتعصبين بتلطيخه بالقار، وأمسك «أويجن تيريبلانش» بالميكروفون واعترض قائلاً: على أى أساس يمكن للبروفيسور «فان چارسڤيلد» أن يتساءل عن النذر بوجوب الاستمرار فى الاحتفال بيوم العهد؟ (صنداى تايمز، ٨ أبريل ١٩٧٩، فى إل. تومپسون ١٩٨٥ : ٢٨٠). بينما تحاجج ورقة «چارسڤيلد» بأنه لاسبيل لمعرفة كلمات النذر، وأنه لم يكن يُحتفل به قبل ١٨٦٤، وأنه ليس الأفريقان فقط هم من ادعى وقوف الله بجانبهم.

إعادة التفكير اللاهوتى

وازداد نقد سياسة الفصل العنصرى فى الكنائس المسيحية فى الداخل والخارج. وكانت جنوب أفريقيا من أكثر الدول «مسيحية» فى العالم بنسبة ٨٣,٩٪ من السكان وكان ٩٣,٨٪ من السكان البيض أعضاء فى الكنيسة المسيحية، وينتمى ٣٥ من ٤٠ وزيراً إلى إحدى الكنائس الهولندية الإصلاحية الثلاث، وحوالى ٤٩٪ من السكان البيض كانوا منضمين إليها [٤٠,١٪ فى كنيسة (NGK) و٦٪ فى كنيسة (NHK) و٩,٢٪ فى كنيسة (GKSA)]. وكان ١٠,٧٦٪ من الأنچليكان و٩,٦٪ من الميثوديست و ٨,٢٪ من الكاثوليك الرومان و ٣,١٪ من المشيخيين، ويشكل الباقون ٤٥٪ من المسيحيين، بالإضافة إلى ٣٪ من اليهود. ولكن كانت المسيحية أيضًا ديانة المضطهدين، أى ٦٩٪ من مجموع ١٨ مليونًا من الأفارقة السود وحوالى ٩١٪ من الملونين ينتمون إلى الكنيسة المسيحية. وساند المجمع العام لكنيسة (NGK) الذى كان يجتمع كل أربعة أعوام سياسة التطور الانفصالى، وكذلك الكنيسة المحافظة(NHK) فى الترانسڤال، فقد دعمت بشكل أكبر هذه السياسة. أما الاعتراض فقد جاء من كنيسة (GKSA) وهى أصغر هذه الكنائس الثلاث (دى جروشى ١٩٧٩، ١٩٩١، دى جروشى وڤيلا ڤيسينسيو ١٩٨٣[1] مودى١٩٧٥؛ هوپ و يونج ١٩٨١).

(١) هذه مجموعة مقالات لعلماء لاهوت من طوائف وثقافات مختلفة (بويزاك، توتو)، تم جمعها بهدف تمكين مواطنى جنوب أفريقيا من أن يسألوا أنفسهم على ضوء قرار اتحاد الكنائس العالمى عما إذا كانت الأپارتهايد هرطقة.

وبالفعل فى عام ١٩٤٨أعلنت معظم الكنائس الأخرى فى جنوب أفريقيا عن رفضها وإدانتها للتشريع المقترح للأپارتهايد. وأكد المؤتمر العالمى للكنائس فى روزتنڤيل فى عام ١٩٤٩، وهو الأول من نوعه منذ تقلد الحزب الوطنى لمقاليد الحكم ـ مع نائب واحد معترض من كنيسة (NGK) ـ وحدة جميع أبناء الله، وأعلن أن الاحتياج الحقيقى لجنوب أفريقيا لا يتمثل فى الأپارتهايد، ولكن فى وحدة العمل فى فريق (دى جروشى ١٩٧٩ : ٥٤ - ٥٦). وقد اعترف اللقاء الذى تم تنظيمه فى پريتوريا فى نوڤمبر ١٩٥٣من قبل المجلس الفيدرالى لنشر المسيحية التابع لكنيسة (NGK) وبحضور مسئولين من طوائف أخرى، بثلاث نقاط اختلاف قسمت المشاركين، وبشكل أكبر المجتمع: الذين كانوا يؤمنون بالتبرير الكتابى للفصل، والذين لا يقتنعون بهذا التبرير ولكن لأسباب نفعية كانوا يسمحون به، والذين كانوا مقتنعين أن الفصل فى الكنيسة سيىء وتدينه النصوص المقدسة (دى جروشى ١٩٧٩ : ٥٧-٥٨).

وخلال الخمسينيات، ظهر شكل من أشكال النقد لنظام الفصل العنصرى داخل كنيسة (NGK)، بينما كانت محاولة تطبيق هذا التشريع تتواصل بشكل سريع. وقام عالما لاهوت معروفان هما «بن مارايس، و كيت» بدحض الأساس اللاهوتى والكتابى للفصل العنصرى. وفى دراسته حول تأثير الفصل العنصرى فى «سوفيا تاون»، أكد الأب « تريڤور هودلستون» وهو مبشر أنچليكانى، أن أعمال الفصل وأسبابه كانت فى الأساس سيئة وضد الفكر المسيحى حيث قال: يتم اللجوء للفصل العنصرى بسبب الرغبة فى السيطرة بهدف المحافظة على التفوق العنصرى، ويدمر هذا السياق العلاقات الشخصية التى هى أساس الحب ذاته، وهذا ضد تعاليم المسيح (هودلستون ١٩٥٦ : ١٨٢).

و قد أثارت مذبحة شارپڤيل فى ٢١ مارس ١٩٦٠أزمة حادة بشأن الأپارتهايد فى جنوب أفريقيا وخارجها على حد سواء. فقد ألقت الضوء على الخلاف القائم بين كنيسة (NGK) والكنائس المسيحية الأخرى المتأثرة بدعوة الأسقف الأنچليكانى المعارض «جوست دى بلانك» لاستبعاد كنيسة (NGK) من المجلس العالمى للكنائس، ولكن بدلاً من ذلك عقد هذا المجلس اجتماعًا للتشاور بشأن المسائل الاجتماعية والخاصة بالعلاقات بين الأجناس المختلفة.

وضمت مشاورات «كوتسلو» عام ١٩٦٠ عشرة نواب من كل كنيسة من كنائس جنوب أفريقيا، التى هى من أعضاء المجلس العالمى للكنائس المسيحية، منهم ١٨ مندوبًا أسود مع ٥ ممثلين من المجلس العالمى. ورفض الإعلان النهائى أى نوع من أنواع التمييز العنصرى غير العادل، وطالب بالكرامة على قدم المساواة للجميع والحقوق المتساوية لجميع المجموعات العرقية فى جنوب أفريقيا، وكذلك لجميع الخدمات الدينية المقدمة لجميع المؤمنين. وبينما أرادت كل من الكنائس التى تتكلم الإنجليزية: الأنجليكانية والمشيخية والميثودية والأبرشية أن يكون القرار أكثر عدلاً، رفض مندوبو كنيسة (NHK) القرار كليّا. والمشكلة الحقيقية كانت معرفة رد فعل مجمع كنيسة (NGK). وتحت تأثير النقد اللاذع للمجموعات المحافظة داخل الكنيسة، رفض كل من مجلس كنيسة الكاپ والترانسڤال هذا القرار، وانسحبت كنيسة (NGK) من المجلس العالمى للكنائس المسيحية.

وعلى المستوى الدولى، عرفت الكنيسة المسيحية كيف تحل مشكلة التحدى الذى كانت تشكله العنصرية للإيمان المسيحى. وقام المجلس العالمى للكنائس المسيحية مبكراً بنشر قرارات و بيانات، وبدأ فى أعمال ضد العنصرية (انظر إصدارات برنامج المجلس العالمى لمكافحة العنصرية ـ ١٩٨٦). وأدانت الجمعية الرابعة للمجلس فى أوپسالا عام ١٩٦٨ العنصرية، وعلى وجه الخصوص العنصرية التى يمارسها البيض من أصل أوروپى والذين يزعمون أن جميع البيض لهم الحق فى الاستعلاء، حيث يدّعون أن الأفارقة أقل شأنًا منهم، وذلك حتى يبرروا إخضاعهم واستغلالهم. (المجلس العالمى للكنائس المسيحية ١٩٦٨ : ٣٥). أما الاجتماع الخامس لجمعية المجلس العالمى للكنائس المسيحية (نيروبى ١٩٧٥) فأدان العنصرية بالعبارات التالية:

إنها خطيئة ضد الله و ضد البشر. فالتمييز العنصرى يتعارض مع عدالة الرب وحبه الذى علمه لنا يسوع. فهو يدمر الكرامة الإنسانية لدى الذى يمارس العنصرية ولدى الضحية. وبما أنه يتم ممارستها من قبل المسيحيين، فهى تنفى الإيمان الحقيقى الذى ندين به، وتدمر مصداقية الكنيسة كشاهدة ليسوع؛ وبالتالى فنحن ندين العنصرية بكل أشكالها داخل الكنيسة وخارجها (المجلس العالمى للكنائس المسيحية ١٩٨٦ : ٥٣).

واعترف الاجتماع بتواطؤ الكنيسة الواعى، وغير الواعى، مع التمييز العنصرى، وعدم قدرتها على اقتلاعه من جذوره داخل الكنيسة نفسها.

وفى عام ١٩٧٦ جددت اللجنة المركزية للمجلس رفضها واعتراض المجلس على الأپارتهايد والعنصرية لأنهما « ضد الإنجيل ولا يتماشيان مع طبيعة كنيسة يسوع، حيث ينتهكان الحقوق الإنسانية الأساسية والأولية». كما أدان المجلس أيضًا المناورات الدنيئة والمنافقة لحكومة جنوب أفريقيا حتى يستمر الأپارتهايد ويتواصل. ودعا مجلس الكنائس لكشف شرور سياسة البانتوستان [تحديد إقامة السود فى أراض معزولة] (فى المجلس ١٩٨٦ : ٥٩). وفى العام التالى وصفت اللجنة المركزية هذه الأعمال بـ: غير العادلة والوحشية والقاسية وغير المقبولة لأنها تسىء للمسيحية، حيث يتم ارتكابها باسم الحضارة المسيحية، من قبل حكام قامعين قساة فى جنوب أفريقيا (المجلس ١٩٨٦ : ٦٤) وأدانت المشاورة الدولية للكنائس فى ١٩٨٠ العنصرية كخطيئة يجب على جميع تلاميذ يسوع أن يكافحوها، كما عبَّرت عن ندمها الشديد وتوبة الكنيسة التى لم تدرك ذلك إلا مؤخرًا (المجلس ١٩٨٦ : ٧٤).

أما الاجتماع السادس للمجلس (ڤانكوفر ١٩٨٣) فقد تطرق إلى العنصرية الرسمية فى جنوب أفريقيا. وجدد رفضه لسياسة الفصل العنصرى ودعا جميع المسيحيين إلى رفضها ومكافحتها:

> **ينشىء الأپارتهايد الحواجز ويرفض الحياة الكاملة ليسوع. ومهمة المسيحيين والكنائس هى السير على خطى السيد المسيح فى الحياة الدنيا والحفاظ على وحدة الكنائس والاعتراض على الأپارتهايد بكل أشكاله، ومساعدة الذين يقومون بمكافحة هذا النظام الشيطانى غير العادل، وإدانة أى تأويل للإنجيل فى محاولة التبرير اللاهوتى للأپارتهايد (الجزء الثانى من ديباجة إعلان المجلس عن جنوب أفريقيا (١٩٨٦ : ٨٥).**

وكان من المعلوم أنه فى حالة القمع الذى تمارسه الدولة، لم يكن بإمكان الكنيسة أن تتفادى المواجهة مع الحكومة (المجلس، الجزء الخامس ١٩٨٦ : ٨٥). هذا وقد كرر المجلس فى توصياته، وأكد اقتناعه بأن إنجيل يسوع يدين الأپارتهايد، وأن أية نظرة

لاهوتية تؤيده أو تسمح به هى لاهوتية منشقة (١٩٨٦ : ٨٧)، وهو ينادى بتفكيك ذلك النظام (١٩٨٦ : ٨٨).

وفى الوقت ذاته، نشرت كنيسة (NGK) وثيقتين من المجلس الكنائسى: الأولى تحمل عنوان العلاقات الإنسانية فى جنوب أفريقيا (١٩٦٦)، والثانية العلاقات الإنسانية فى جنوب أفريقيا على ضوء الكتاب المقدس (١٩٧٤)، وبدون تقديم أدنى تبرير، اعترفت الوثيقة الأخيرة ـ مثلها مثل إصدارات كنيسة (NGK) اعترفت بسلطة الكتاب المقدس المطلقة فى تحديد المعايير الخاصة بجميع الأعمال الحياتية. وأكد النص فى نفس الوقت أن النوع البشرى واحد متساو فى الأساس، وأن التنوع العرقى كان منذ الأصل يتسق مع إرادة الله «يمكن تبرير النظامً السياسى الذى يقوم على التولد الذاتى، أو التنمية المنفصلة بين المجموعات [العرقية] المختلفة، بالكتاب المقدس». والواضح أن كنيسة (NGK) كانت ترفض ظلم العنصرية والتمييز، لكن كانت تؤيد سياسة التنمية القائمة على الفصل. وفى تأويل كهذا للنصوص الكتابية، يصبح الكتاب المقدس نوعًا من أنواع الكتب الوسيطة ذا نصوص دلالية، يمكن للاستخدام الانتقائى لها أن يعطى وزنًا لنظام سياسى خاص، وفى هذه الحالة يتم الرجوع إلى الخمسين استشهادًا التى تم استخدامها لدعم الأپارتهايد: التكوين. ويبين «باكس» كيف أن التقرير يجهل نصوصًا أخرى فى الكتاب المقدس التى تعطى قيمة وتؤكد على وحدة شعب الله وتكامله (١٩٨٣ : ١٣٣ - ١٤٤).

وخلال الستينيات والسبعينيات، اتخذ بعض علماء لاهوت كنيسة (NGK) وغيرها ـ بكل شجاعة ـ موقفًا ضد السياسة الحكومية. كذلك جاءت معارضة سياسة التمييز العنصرى من مصادر إصلاحية أخرى، خاصة من هولندا، مما أدى إلى قطع العلاقة بين كنيسة (NGK) وجيريفورميردى كيركن فى عام ١٩٧٨. وقد أكد بالفعل مجلس كنائس جنوب أفريقيا فى عام ١٩٦٨ أن الأپارتهايد والتطور القائم على الفصل يتعارض مع الإنجيل. ونكتشف فى الفترة ذاتها تقريبًا بوادر لاهوت جديد يتبناه السود متأثرًا بأفكار «چيمس كون». وفى سياق جنوب أفريقيا، كان يهدف هذا اللاهوت إلى توعية السود بمعنى هويتهم وكرامتهم. واستنادًا على الكتاب المقدس، كان يركز هذا اللاهوت على سفر الخروج، أو على الأقل على جزئه الأول، وعلى رسالة يسوع الذى وضَّح أن الله مع المضطهدين. وعلى الرغم من التحفظات التى نجدها فى عمل

«أوكيونج» (١٩٨٤)، أصبح لاهوت السود عاملاً مهمّا وفعالاً فى تغير وجهات النظر فى كتابات «ألان بويزاك» (١٩٧٦، ١٩٨٤) و«تكاستو موفوكنج» (١٩٨٣) وآخرين من بينهم الأسقف «ديسموند توتو» الذى يتميز بشخصية كاريزمية.

وفى الثمانينيات، أكد مجلس الكنائس المسيحية فى جنوب أفريقيا والذى كان يرأسه الأسقف «توتو» فى تلك الفترة، على رفضه الشديد للأپارتهايد، وكانت سنة ١٩٨٢ سنة أزمة بالنسبة للكنيسة. وعلى الرغم من أنها انسحبت من المجلس العالمى للكنائس المسيحية فى ١٩٦٠، إلا أن كنيسة (NGK) بقيت عضواً فى التحالف العالمى للكنائس الإصلاحية، ولكن عندما أكدت هذه المؤسسة فى إصدارها الذى يحمل عنوان «العنصرية وجنوب أفريقيا» (أوتاوا ١٩٨٢) أن الأپارتهايد هو هرطقة لاهوتية ابتدعتها الكنائس الأفريقانية، علقت عضوية كل من كنيسة (NGK)، وكنيسة (NHK). وعينت «ألان بويزاك» عضو كنيسة (NGSK) كرئيس، وفى العام ذاته انضمت كنيسة «بويزاك» إلى مجلس كنائس جنوب أفريقيا.

وفى عام ١٩٨٢ أكدت كنيسة (NGSK) أن الأپارتهايد هو شكل من أشكال الوثنية وأن تبريره اللاهوتى هو هرطقة. ونشر النص فى عام ١٩٨٦ متحديًا لاهوت الأپارتهايد الذى دعت إليه كنيسة (NGK). إلا أن القوى المحافظة استمرت فى بسط سلطتها على كنيسة (NGK) خلال انعقاد المجلس الكنائسى العام فى أكتوبر ١٩٨٢. ولكن كانت معارضة التمييز العنصرى تزداد فى الكنائس المتحدثة بالإنجليزية والكنائس الكاثوليكية الرومانية والكنيسة اللوثرية، بل وأيضًا لدى أعضاء مهمين فى كنيسة (NGK) (دى جروشى ١٩٧٩، هوپ ويونج ١٩٨١، ريجر ١٩٧٩).

يوضح إصدار وثيقة «كايروس ـ Kairos» يوم ٢٥ سبتمبر ١٩٨٥ وإصدارها الثانى «المُراجَع» بعد عام زيادة حدة التعليقات اللاهوتية للسكان الأصليين بشأن الوضع الذى أصبح متأزمًا أكثر فأكثر ولا يمكن السيطرة عليه. فقد عرضت نقدًا للنماذج اللاهوتية المقبولة فى الكنائس، واقترحت بديلاً كتابيّا ولاهوتيّا فى ذات الوقت، والذى وفقًا للكتاب المقدس قد يؤثر بشكل مختلف على مستقبل جنوب أفريقيا. كما نقدت الوثيقة موقف اللاهوت بشأن الأپارتهايد لاستعماله الخاطئ للمصطلحات اللاهوتية والنصوص الكتابية لصالحه (الفصل الثانى). واتهمت الوثيقة الكنائس بصياغة نقد

حذر وسطحى ضد الأپارتهايد باستعمال أفكار مستهلكة عن الصلح والعدل وعدم العنف دون الجرأة على القيام بتحليل عميق لواقع تلك الفترة. ولم يكن من الممكن إرساء سلام، لا سيما أن بعض النزاعات كانت تجمع بين ظالم عنيف ذى تسليح عالٍ ومضطهد بدون دفاع.

ليس هناك فى الكتاب المقدس أو فى التقاليد المسيحية أى شىء يقول بأنه يجب الجمع والتوفيق بين الخير والشر، بين الرب والشيطان، أو يجب أن نترك الشر والظلم، والاضطهاد والخطيئة دون مقاومة. ومن المفترض أن نعترض ونقاوم ونرفض الشيطان وليس أن نتحالف معه (وثيقة كايروس ٣. ١).

إلزام السود بالدخول فى عملية المصالحة بدون عدل، كان يعنى أن يطلب منهم أن يكونوا متآمرين مع الاضطهاد الذى كانوا يعانون منه. لم يكن السلام الذى كان يقدمه العالم إلا وحدة تقايض فى الحقيقة وتخفى الظلم والقمع، فالمحرك الأول والأساسى لها هو الأنانية. وتستمر الوثيقة:

لكى يكون هناك اتباع حقيقى للكتاب المقدس، يجب على مسئولى الكنائس أن يتبنوا لاهوتًا يعتمد على المواجهة المباشرة مع قوى الشر بدلاً من تبنى لاهوت يتسق مع الخطيئة والشيطان (وثيقة كايروس ٣. ١).

كما قارنت الوثيقة القمع الذى تمارسه الدولة، وغياب العدل السائد والسيطرة بالعنف الذى يمارسه المغتصب، ومقاومة المرأة والدفاع عن نفسها بالقوة البدنية، التى تستعملها المرأة الضحية ضد المغتصب. وإذا كان هناك اتهام، فإن استعمال العنف للدفاع عن النفس هو بالطبع الاتهام الأدنى. كما انتقد سلطة الكنيسة التى كانت تقول إن النظام الذى يطبق الفصل العنصرى كان سلطة شرعية، والتى بحيادها تعطى موافقة ضمنية للمضطهد (٣. ٣). ويجب على لاهوت الكنيسة أن يدعم فهْمًا يتناسب مع الاستراتيچية السياسية ويجب أن توسع مفهوم الخلاص إلى الـ «هنا» و«الآن» (٣. ٤).

ويجب أن تكون نقطة انطلاق اللاهوتية من معاناة القمع والاستبداد. يثير لاهوت التنبؤ بطبيعة الحال مواجهات، ولكن يجب أن يبقى الأمل. يجب أن تسمى خطيئة الأپارتهايد بأنها «إثم فى حق الله».

ووفقًا لتعاليم التراث الإصلاحى، كان الرجوع إلى الكتاب المقدس ضروريًا، لكن كان انتقائيًا بشكل غريب كما فى الرسالة إلى مؤمنى روما «الخضوع للسلطات»:

على كل نفس أن تخضع للسلطات الحاكمة. فلا سلطة إلا من عند الله، والسلطات القائمة مرتبة من قبل الله. حتى إن من يقاوم السلطة، يقاوم ترتيب الله، والمقاومون سيجلبون العقاب على أنفسهم؛ فإن الحكام لا يخافهم من يفعل الصلاح بل من يفعل الشر. أفترغب إذن فى أن تكون غير خائف من السلطة؟ اعمل ما هو صالح، تكن ممدوحًا عندها، لأنها خادمة الله لك لأجل الخير. أما إن كنت تعمل الشر فخف، لأن السلطة لا تحمل السيف عبثًا، إذ إنها خادمة الله، وهى التى تنتقم لغضبه ممن يفعل الشر. (العهد الجديد ـ الرسالة إلى مؤمنى روما ١٣ : ١ – ٤).

وعندما يتم ذكر العنف الذى ورد فى الكتاب المقدس، يتم الرجوع فقط إلى ذلك العنف الذى يمارسه أعداء إسرائيل. وعند التحدث عن المعاناة والقمع فى العهد القديم، يتم التركيز على تلك التى عانى منها الإسرائيليون من قبل المصريين وملوك كنعان... الخ.

ولكنهم يتجاهلون غزو أرض الوعد والمعاملة التى لقيها الكنعانيون وأمم أخرى من بنى إسرائيل بأمر من الله. ومع ذلك يركز تأويل الكتاب المقدس فى تقرير كايروس على النصوص من وجهة نظر الإسرائيليين، دون أن يرتفع إلى تحدى قراءة الكتاب المقدس بأعين الكنعانيين.

خاتمة

بدأت الأسطورة السياسية للقومية الأفريقانية تتلاشى و تضمحل مع بداية القرن. ولقد رأينا كيف خلقت القومية الأفريقانية الأساطير السياسية وساندتها ونوعتها لتصل إلى أهدافها، وكيف نقد البحث التاريخى و الأنثروبولوچى كل عنصر مكون لهذه الأساطير. فلم يتم القبول بأسطورة الأرض الخالية التى استقبلت شعبًا بدون أرض عندما تم إثبات وجود شعب أفريقى فى المنطقة قبل العصر المسيحى، وكذلك البوير الذين ثاروا ضد حكومة الكاپ الاستعمارية فى ١٨١٥ فقد بدوا كمتمردين وليسوا

كأبطال. أما ظروف أسطورة النذر غير المؤكدة فى عام ١٨٣٨ فقد شكك البحث فى تاريخية الأسطورة نفسها. هذا بالإضافة إلى أن كل المؤرخين، أو تقريبًا كل الذين درسوا القرن التاسع عشر، رفضوا وجهة النظر ـ التى ما زالت شائعة ـ والتى تقول إن الأفريقان فى النزوح الكبير كانوا مقتنعين بأن واجبهم هو الاستيلاء على الأراضى من السكان السود الأصليين بالطريقة التى قام بها الإسرائيليون الذين، وفقًا لرأيهم، كانوا مكلفين من الله بتطهير أرض كنعان من الشعوب التى تسكنها[1]. كما أن الأسس البيولوچية المقترحة التى كانت تبرر العنصرية أو النظريات الفجة حول التفرقة العنصرية تم استبعادها. هذا كما رُفضت الإمپريالية و التمييز المبنى فقط على التفرقة العرقية بشكل شبه دولى، وانحصرت ممارسة العنصرية فى جنوب أفريقيا فقط.

وفى المجتمع الأفريقانى، حيث برز تحالف بين الكنيسة والدولة، كان الدين يقدم مرجعًا فوقيّا لممارسة السلطة. وعلى الرغم من دعم اللاهوت السائد فى الكنيسة الهولندية للأپارتهايد (التمييز العنصرى)، ساهمت الانتقادات اللاهوتية والكتابية فى القضاء عليه. وبالفعل فقد تم مهاجمة التفرقة العنصرية من كل الجهات وفى كثير من الأحيان من البيض وحتى من الأفريقان. وبالتالى هاجمت كل من الأبحاث الحديثة فى الآثار وفى الدراسات التاريخية، والاكتشافات الحديثة، والتأمل اللاهوتى والكتابى الجديد، كل مظاهر الأسطورة الأفريقانية؛ ومن ثم تزعزت القومية الأفريقانية ثقافيّا وأخلاقيّا.

وعندما يرفض التاريخ، وأشكال أخرى من البحث، حجج الأساطير الخطيرة، فكل فرد مسئول عن إسقاط الاحترام الذى كانت تحظى به من قبل، والحرص على أن لا تلعب هذه الأساطير الكاذبة الموروثة من الماضى دوراً تدميريّا. إلا أن بعض دارسى الكتاب المقدس قبلوا هذه المسئولية لكن بتحفظ. فعلى سبيل المثال أنهى «دايست» دراسته كما يلى:

من الممكن أن يعرض سفر التثنية أيديولوچيات خطيرة، وبالتالى قد يكون كتابًا خطيرًا. ولكن الخطر الأكبر يأتى من القرَّاء الذين يقرءونه بدون فكر

(١) عبر عن هذه الأسطورة الشعبية «دى كلارك» ١٩٧٥، «ڤيلى» ١٩٨٢ وآخرون، كذلك قصة «چيمس ميشنر» (ذى كوڤنانت ١٩٨٠).

نقدى . وبالاعتراف بأن التاريخ المأساوى لجنوب أفريقيا، وتهديد الكارثة القومية الموجود دائمًا، نشأ من تفسير الكتاب المقدس، فلا ترجع هذه المأساة إلى طرق تفسير الكتاب الخاطئة أو الخطيرة، بل إلى نقص الحس النقدى لدى بعض المفسرين. يجب أن تشجع تجربة جنوب أفريقيا القرَّاء على تناول الموضوع بنظرة نقدية للطابع التاريخى لأى إنتاج أدبى ، وأى شكل من أشكال التأويل بما فى ذلك أخلاقيات التأويل (١٩٩٤ : ٢٨ – ٢٩).

وإذ يبين «دايست» جيدًا المشاكل التى قد يثيرها الكتاب المقدس بالنسبة للقارئ العادى، يقبل بصعوبة أن سفر التثنية قد يشكل فى حد ذاته كتابًا خطيرًا لا سيما فى المواضع التى يتم فيها التأكيد على أن الاتجاهات العنصرية والعداء للأجانب والميول القتالية امتثال لإرادة الله . ويحدد المشكلة بإلقاء المسئولية على دارسى الكتاب المقدس وبالأخص على القارئ الذى يرى أن لديه استعدادات أخلاقية تدعو للشك .

ولكن على ضوء تجربة السود، يعرض «موفوكنج» صميم المشكلة . يشير الشعب الأسود لجنوب أفريقيا بإصبعه إلى ثلاث حقائق متنازعة :

يوضح السود الموقف المحورى للكتاب المقدس فى تطور عملية استعمارهم وقمعهم واستغلالهم . وثانيًا يعترفون بالتناقض الذى يتمثل فى أنهم مُسْتَعْمَرون من شعب مسيحى، ومع ذلك تحولوا للمسيحية وقبلوا الكتاب المقدس، الذى كان الأداة الأيديولوچية التى أدت إلى استعمارهم وقمعهم واستغلالهم . وثالثًا يشعرون أن لديهم التزامًا تاريخيّا توارثته الأجيال المتعاقبة بشكل مقدس، وهو تعهد بوضع حد لاستغلال الإنسان لأخيه الإنسان (موفوكنج ١٩٨٨ : ٣٤).

ويواصل :

وعندما يلاحظ المسيحيون السود هذه الجهود التى يقوم بها المحافظون المنفعلون ويسمعون ترتيل الكتاب لدعم قضايا رجعية، يكتشفون أن الكتاب نفسه يمثل مشكلة خطيرة بالنسبة لشعب يريد أن يكون حرّا (١٩٨٨ : ٣٧).

ويؤكد «موفوكنج» أن فى الكتاب المقدس العديد من النصوص التى لا يمكن تفسيرها إلا لصالح القمع النظرى والتطبيقى، وبكل بساطة لأنها ذات طابع قمعى. ويضيف قائلاً إن أية محاولة لتفسير هذه النصوص القمعية لصالح المضطهدين، ما هى إلا لصالح القامعين. هذا وقد اكتشف الشباب السود أن الكتاب المقدس هو وثيقة قمعية استبدادية بطبيعته، وطالبوا باستبعاده وإلغائه (موفوكنج ١٩٨٨ : ٣٤)[١].

***

(١) وعلى الجانب الإيجابى ،ذكر «وست» و«درابر» أعمال معهد جنوب أفريقيا لدراسة الكتاب المقدس الذى تم إنشاؤه مؤخرًا، والذى يسعى إلى إحداث تفاعل بين الدراسات الكتابية والقارئ العادى وتطوير هذا التفاعل (١٩٩١ : ٣٦٩ - ٧٠). وقد لفتا الأنظار إلى أعمال هامة قدمها عدد كبير من المؤسسات داخل البلاد.

obeikan.com